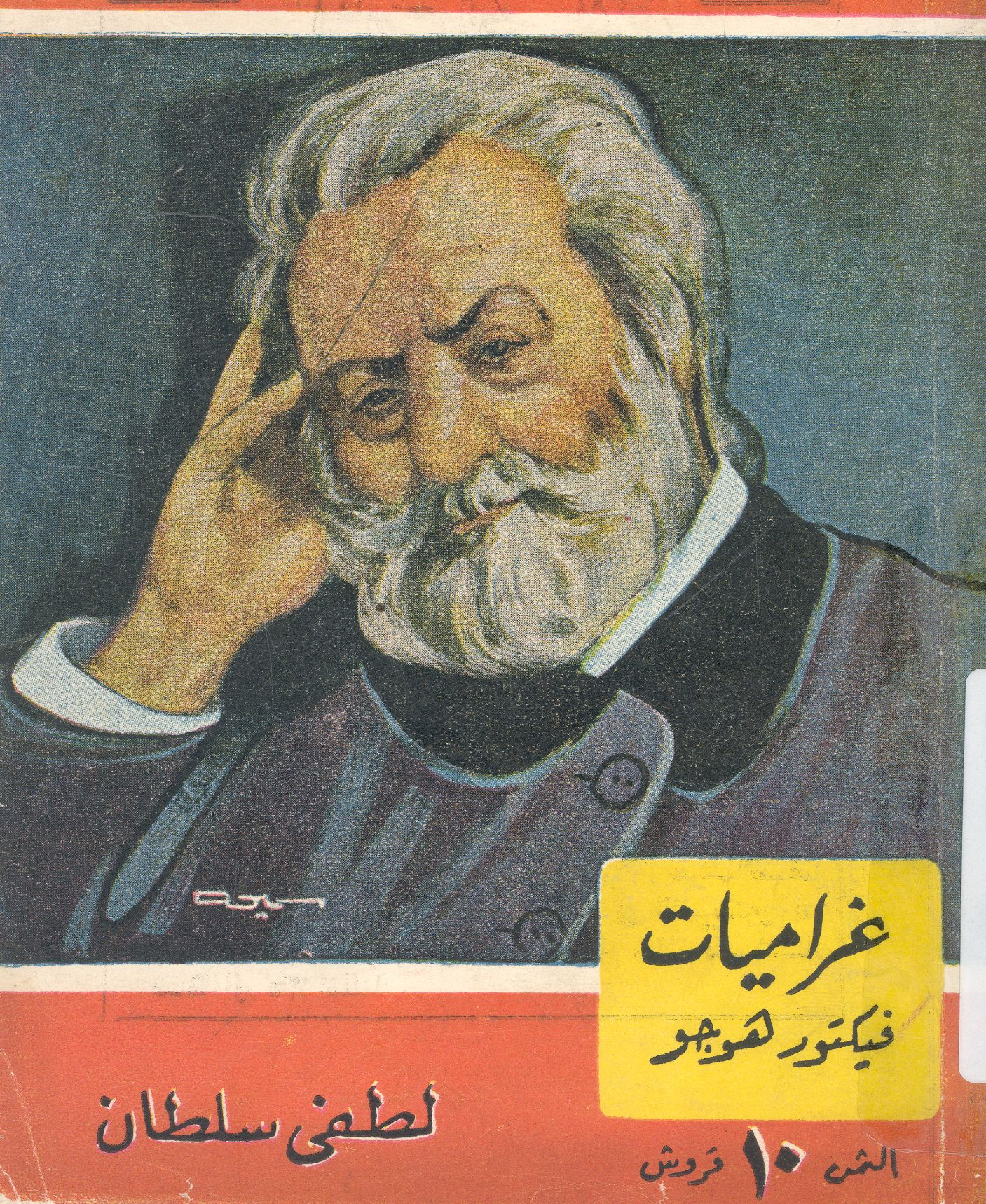
كتاب الهلال



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس التحرير · طاهر الطناحي

العدد ١٢٨ ــ جمادى الاولى ١٣٨١ ــ نوفمبر ١٩٦١

No. 128 — NOVEMBER 1961

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

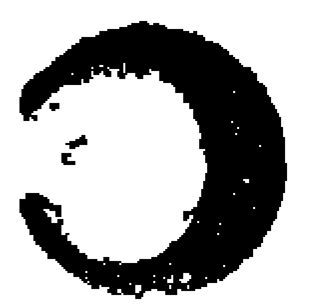
المكاتبات

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان ١٠٠ قرش صاغ ــ فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا ــ فى بلاد اتحاد البريد العربى بالبريد البحرى ١٣٠ قرشا صاغا و (بالطائرة) ١٧٨ قرشا صاغا ــ فى الامريكتين ٥ دولات ونصف ــ فى سائر انحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغا أو ٣٥ شلنا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

غراميات

فيكتور هوجو

بقلم

لطفي سلطان

مقدمة

فيكتور هوجو اسم يملأ القرن التاسع عشر بأسره ، وقد غطى أدبه كل مجالات النشاط الفكرى فتناول الشعر والنثر، والرواية والمسرح ، والاسطورة والتاريخ ، وامتد فشمل حتى السياسة . وضرب فى كل لون من الوان هذا النشاط بسهم وافر ، فلمع اسمه فيه وبقى الى اليوم ، على الرغم من كل شيء ، محاطا بهالة من المجد

وفى هذا الكتاب ، سأحاول أن أقدم قصة حياة الشاعر العظيم وأبين تطوره الفكرى والعاطفى ، مع العناية بابراز الاحداث التى كان لها أثر فى انتاجه الادبى وفى حياته بوجه عام ، وهى حياة تجاوزت فى جميع نواحيها كل الحدود المألوفة لبنى الانسان . وهذا أمر طبيعى بالنسبة الى رجل كفيكتور هوجو لا يعتبر شخصا عاديا ، وقد بلغت به مواهبه مرتبة العباقرة الافذاذ

واذا كنت قد اتبعت فى البحث منهجا كهذا فانما مرد ذلك الى الرجل الذى أكتب عنه ، فقد دعانا هو نفسه الى اتباع هذا المنهج فى عرض حياته وأدبه حين قال فى قصيدة له :

اذا كانت أفكارى تخرج أحيانا من صدرى
وتتفرق أغانى فى العالم أجزاء أجزاء
واذا طاب لى أن أكتم الحب والآلم
فى ثنايا رواية ساخرة هازئة
واذا كنت أهز المسرح هزا بخيالى الخصب
وأجعل رجالا يعيشون معا مثلكم يتصادمون

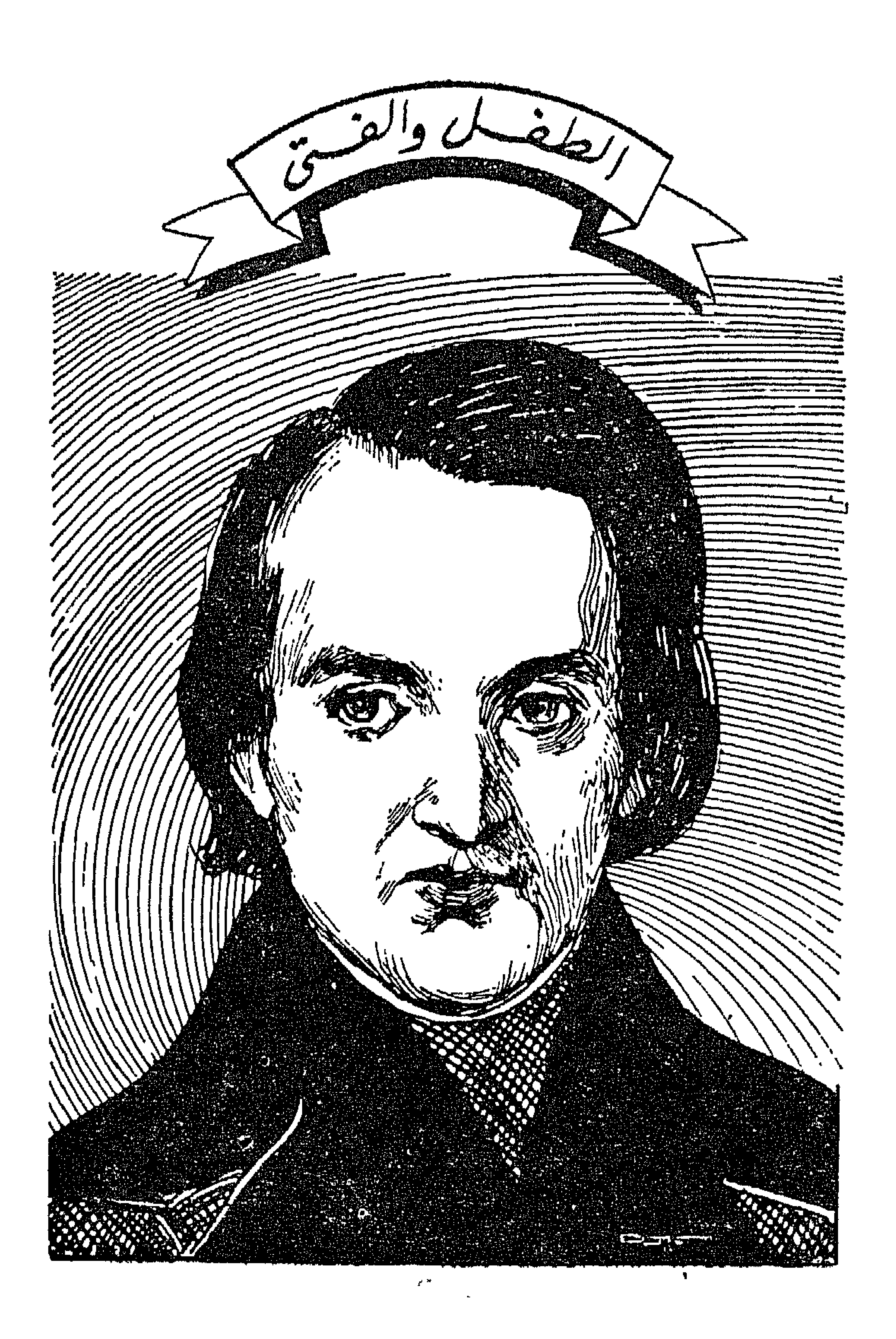
امام أعين الصفوة من الجمهور
فانما اخاطب الشعوب بلغتى وصوتى

والواقع ان من يقص حياة فيكتور هوجو ، عليه أن يؤرخ للقرن التاسع عشر بأسره ، فهو مرآة لهذا القرن ، يساير نشاطه الفكرى والادبى تطوراته وأحداثه ، وتتمشى روحه المرنة التى عكست كل الالوان مع المجتمع القلق الذى عاش فيه ، ونزوات عصره المضطربة ، ونظمه السياسية غير المستقرة

ولم يتأثر احد قط بالتيارات والمصادمات العنيفة التى هزت فرنسا منذ نيف ومائة عام ، كما تأثر هذا الشاعر ذو الحساسية المرهفة ، فقد أحس بكل رد فعل ناتج عن الافكار التى قلبت الاوضاع فى زمانه رأسا على عقب ، وعرف السلم والحرب ، والنصر والهزيمة ، والاقطاع والثورة ، والملكية الارستقراطية والنظام الجمهورى ، وتأثر بعدوى هذه النظم جميعا وبما لها من أسس وتقاليد ، وتميزت حياته بسلسلة من المآسى ومن التجارب القاسية والاحداث الاليمة انعكست آثارها واضحة فى تفكيره ومؤلفاته

فمهمتى اذن ليست يسيرة . ولهذا ، فقد رأيت أن أضيق دائرة البحث فى ناحيتين لاشك فى أنهما اعمق النواحى أثرا فى حياة هوجو : الناحية الغرامية ، والناحية السياسية . وقد وجهت أكثر عنايتى الى الناحية الاولى ، فقد عاش الرجل عاشقا كل حياته .. وأما الثانية فقد رأيت من الخير ــ حتى لا يتشعب بنا البحث ــ أن أقتصر فيها على القدر الذى يمكن القارىء من أن يعيش مع هوجو فى عصره ، وأن يتابع مجرى الاحداث التى كانت ذات أثر حاسم فى انتاجه ..
وأرجو أن أكون قد وفقت
والله ولى التوفيق

لطفى سلطان


الطفل والفتى

الطفل والفتى

لم تعرف زوجة الميجور « ليوبولد هوجو » انهـا كانت تحمل بين أحشائها جنينا الا فى احدى أمسيات شـهر مايو عام ١٨٠١ م على أعلى قمة فى جبل الفوج أثناء سـفرها من « لونيفيل » الى « بيزانسون » • وفى الثامن والعشرين من فبراير عام ١٨٠٢ ، وضعت الزوجة فى بيزانسـون طفـلا اسمته « فيكتور » ، وكان الوليد من الضعف والهزال بحيث استقر فى روع الوالدين والمشرف على الولادة أنه لن يعيش طويلا ، ولكن الصغير قدر له أن يعيش بفضل عنـاية أمه

وكان الجنرال هوجو وزوجته صوفى ، على قدر كبير من الطيبة وكـرم الخلق ، ولكنهما لم يكونا دائمـا على وفاق ، فعاشت الزوجة مع أولادها فى باريس بينمـا كان زوجهـا القائد مشغولا بمعاركه فى أوروبا أثناء حروب نابليون

وقضى فيكتور أعوام طفولته مع شقيقيه آبيل (١)وأوجين فى كنف أمه ببيت الاسرة (٢) فى شارع « الفيانتين » ، وهو منزل فخم له حديقة واسعة تركت فى نفسه حتى آخر أيامه حنينا دائما الى مرتع طفولته ، وما يراه فيه من شجر وطير وعهدت الام بتربية ولدها الصـغير الى قسيس سـابق

---

(١) Abel

(٢) دير سابق كان يحمل هـذا الاسم استأجرته السيدة صوفى هوجو

يدعى « لاريفيير » كان قد خلع مسوح الرهبان ثم تزوج أيام الثورة الفرنسية ، فلما أراد الرجل أن يعلمه القراءة والكتابة ، أدهشه أن يعرف أنه قد تعلمها فعلا من تلقاء نفسه ، فمضى به قدما الى دروس اللغة اللاتينية ، وسرعان ما أحبها الطفل وقد أعجبته عباراتها الدقيقة الموجزة

وفى بداية عام ١٨١١ ، انتزع الصغير فيكتور وأخواه من مرتع طفولتهم بشارع الفيانتين ، اذ قررت السيدة صوفى هوجو أن تلحق بزوجها القائد فى أسبانيا بناء على طلبه ، وكان نابليون قد عين أخاه جوزيف بونابرت ملكا لاسبانيا ، فوقع اختيار هذا الاخير على الجنرال هوجو ليكون قائدا فيها وحاكما لثلاث مقاطعات ، فأقام القائد مع زوجته وأولاده بقصر « ماسيرانو » بمدريد

وأحب فيكتور هذه البلاد بطبيعتها الخلابة ومناظرها المتنوعة . والواقع أن اقامته بها قد تركت فى نفسه اثارا لازمته مدى الحياة ، فاليها يرجع ميله الى جمال المرأة وافتتانه بسمات الجمال الاسبانى بوجه خاص ، كما أن « أشباحا غامضة بلا اسم ستظل تسكر روحه منذ رحلته الى أسبانيا لتصبح فيما بعد أشياء من لحم ودم فى مسرحه الرومانتيكى »

وفى صيف عام ١٨١٤ ، غادر الجنرال ليوبولد هوجو وأسرته أسبانيا اثر زوال عهد الامبراطورية ، وعجل بالعودة الى باريس حيث ألحق ولديه أوجين وفيكتور بالقسم الداخلى بمدرسة « كوردييه و ديكوت » بشارع « سانت مارجريت » ، وهو طريق ضيق معتم يقع بين سجن « لابى » وزقاق «دراجون» .. فكانت تلك هى نهاية مرحلة

الطفولة بالنسبة الى فيكتور الذى كتب فى سن الرابعة عشرة يقول : « اننى أريد أن أكون شاتوبريان أو لا شىء » !

وأعلنت الاكاديمية الفرنسية عن مسابقة الشعر لعام ١٨١٦ م ، وكان موضوع المسابقة « السعادة التى تخلقها الدراسة فى كل مواقف الحياة » . فكتب فيكتور قصيدة مؤلفة من ثلثمائة وأربعة وثلاثين بيتا ، قدمها مع أحد أساتذته الى سكرتارية الاكاديمية

وبعد انقضاء أسابيع ، كان فيكتور يلعب فى فناء المدرسة حين رأى شقيقه آبيل مقبلا نحوه ، وكان قد أصبح ضابطا ، وقال له : « لم تصدق الاكاديمية أنك فى الرابعة عشرة من عمرك ، ولولا هذا لفزت بالجائزة الاولى ! »

ولكن فيكتور ما لبث أن عوض الفرصة التى أفلتت منه بأن تقدم لمسابقة « اكاديمية الالعاب الزهرية فى تولوز »(١) ففاز بالزنبقة الذهبية وبجائزتين من أولى جوائزها على قصيدتين من قصائده ، وتفوق بذلك على كثير من منافسيه من بينهم الشاعر المعروف « ألفونس دى لامارتين »

وفى أغسطس من عام ١٨١٨ ، غادر فيكتور مع شقيقه أوجين مدرسة « كوردييه وديكوت » وقد غمرتهما فرحة بالغة ، وأقاما مع والدتهما التى انتقلت فى الشهر نفسه من بيت شارع الفيانتين لتقيم فى شقة بالدور الثالث بالمنزل رقم ١٨ بشارع « بيتى أوجيستان » ، لان المعاش الذى كان يتقاضاه زوجها المتقاعد لم يكن يسمح لها بأن تقيم مع أولادها فى بيت له حديقة . وبانتقال أسرة هوجو الى هذا السكن الجديد ، بدأت صفحة رائعة فى سجل حياة الفتى فيكتور

L'Academie des jeux Floraux de Toulouse (١)


ادیل فوشیه

أول حب

كان فيكتور هوجو لا يزال فى السادسة عشرة حين بدأت الصحف تتحدث عنه . وكان ذلك بالطبع مدعاة لفخره ، ولكنه لم يكن كل شىء .. فقد كانت هناك أيضا فتاة نضرة كالزهرة تدعى « آديل فوشيه » ، خمرية اللون ، رقيقة الشفتين ..

وكان فيكتور يعرف آديل منذ أيام الطفولة ، اذ كانت والدتها صديقة لوالدته ، وكانت بين أسرتيهما صلة قديمة ترجع الى ما قبل ميلادهما ، وقد ظلت هذه الصلة قائمة على الرغم من الفارق الذى أصبح كبيرا بين الجنرال هوجو والد فيكتور ، ومسيو بيير فوشيه الكاتب الاول فى احدى المحاكم

وهكذا نشأ أولاد الاسرتين وترعرعا معا ، وكثيرا ما كانت آديل تذهب مع شقيقها فيكتور فوشيه عند «مدام هوجو» لتلعب وتضحك مع الاشقاء الثلاثة : آبيل ، وأوجين ، وفيكتور ، ساعات طويلة فى حديقة بيت الفيانتين ، فكانوا يعاملونها بشىء من الاحتقار الذى يتسم به عادة سلوك الصبيان نحو فتاة من سنهم ، وكانوا يعصبون عينيها بمنديل ويجعلونها تركب عربة البستانى ذات العجلات الثلاث ، ثم يقولون لها : « عليك الان أن تقولى أين أنت » وتعلو بعد ذلك ضحكاتهم وصيحاتهم !

وكانت آديل تشاركهم الضحك والصياح ، ولكنها كانت تفضل أن تلعب وحدها مع الصغير فيكتور ، وتوليه عناية خاصة. . وكان فيكتور من ناحيته ، يأنس اليها ويبادلها رقة برقة ، واهتماما باهتمام . ثم أصبحت تبدو له بعد أعوام وكأنها أميرة أسبانية ، بشعرها الاسود الطويل ، وبشرتها الخمرية المائلة الى السمرة ، وعينيها الواسعتين الصافيتين اللتين تبعثان فى النفس الراحة والهدوء . لقد صارت البنت الصغيرة فتاة يافعة ، وأصبحا الان يتبادلان الحديث بدلا من أن يلعبا العاب الصغار ، او يقرآن معا ويقترب رأساهما يتابعان نفس السطور .. ومن حين لآخر ، كانت تواتيه القوة ليجرى خلفها ، ويلحق بها أخيرا وهو لاهث الانفاس ولكنه منتصر مسرور ، فيمسك بها من خصرها النحيل ! ثم تذهب الفراشة الجميلة الى أمها فتقول : « آه يا أماه ! آه لو تعلمين كم جرينا ! »

أما فيكتور فلم يكن يقول لامه شيئا ، ولكنه كان يشعر بأن الجنة كانت فى قلبه ..!

وقد أشار فيكتور هوجو الى مولد حبه ، فقال (١) :

« هأنذا أرى نفسى مرة ثانية فتى حديث السن ، تلميذا فى المدرسة ، مرحا ، لعوبا ، أجرى وأمزح ضاحكا مع اخوتى فى الممر الاخضر الكبير بحديقة البيت الذى قضينا فيه أيام صبانا .. وكنت لا أزال صبيا ، ولكن كانت تراودنى الاحلام وتملأ الشهوة أعطافى ، وكانت هناك الى جوارى فتاة واسعة العينين ، غزيرة الشعر ، سمراء البشرة ، حمراء الشفتين ،

---

(١) كتاب : « آخر أيام محكوم عليه بالاعدام » نشر فى سلسلة كتاب الهلال

خداها بلون الورد ... وكانت والدة كل منا تقول لنا : هيا ، انطلقا والعبا معا . فكنا نتنزه .. ولكننا لا نلعب ، فقد كنا نؤثر أن نتبادل الحديث . كنا من سن واحـدة ، ولكننا لم نكن من جنس واحد . ومع ذلك ، فقد ظللنا مدة سنة أخرى ونحن رفيقان ، بل لقد حاولنا غير مرة أن نعرف أينا أشـد بأسا وأصلب عودا من صاحبه .. خطفت منها مرة أكبـر تفاحة فى البستان ، وصفعتها على وجهها مرة أخـرى حين رفضت أن تعطينى عش عصـــفور ، فأخذت تبكى وتنتحب فقلت لها : حسنا .. فلنذهب اذن ونخبر والدتينا بالامر ، فتقولان لنا ان كلينا قد أخطأ ، ولكن كل واحدة منهما تعتقد فى قرارة نفسها أن ولدها كان على صواب !

ولم ينقض وقت طويل، حتى صارت ، اذآ سرنا ، تتكىءعلى ذراعى ، فكنت أشعر حينئذ بفخر كبـير ويتملكنى شـعور غريب ، فكنا نمشى فى رفق ونتحدث فى رقةولطف .. سقط منها منديلها ذات مرة ، فالتقطته وقدمته لها ، فمست يدى يدها وشعر كل منا بهزة ، فأخـذت تتحدث عن الطيـور ، والنجوم فى الفضاء ، وحمرة الشفق من وراء الاشجار ، وعن زميلاتها فى المدرسة ، وثيابها .. تحدثنا حديثا بريئا فى أمور عادية ، ولكن وجنتى كل واحد منا كانتا متوردتين .. ذلك ان البنت الصغيرة كانت قد أصبحت فتاة شابة »

وفى أغسطس من عام ١٨١٨ م ، انتقلت أسرة هوجو الى شقة بالطابق الثالث رقم ١٨ بشارع «بيتى أوجيستان» لتقيم الى جوار بيت آل فوشيه ذى الحديقة

وكانت « مدام هوجو » تذهب بعد العشاء لزيارة صديقتها

مدام فوشيه ، وكان ولداها أوجين وفيكتــور يرافقانها فى اكثر تلك الزيارات . ويقول بواب « أوتيلَ دى تولوز » (١) انه كان يرى الشابين الصغيرين مع والدتهما قادمين لزيارة اسرة فوشيه ، وكادت هذه الزيارات أن تكون رتيبة كل ليلة من ليالى شتاء ١٨١٨ ـ ١٨١٩ . وغالبا ما كان الملل يسود جو تلك السهرات ، فقد كان مســيو فوشــيه رجلا ضعيفا معتل الصحة ، فكان يأخذ كتبه وينتحى ركنا خاصا ، مفضلا الا تقلقه ثرثرة الحاضرين . وكانت مدام فوشيه وادعة هادئة الطبع لا تميل الى الافاضة فى الحديث ، وقــد وضعت ذلك نصب عينيها ترفقا بزوجها واراحة له . وكانت مدام هوجو نفسها تقطع ما هى عاكفة عليه من « أشغال الابرة » بين حين وآخر لتأخذ قليلا من السعوط ، وهو عملَ كان مسيو فوشيه يشاركها فيه ، وكانت الام قد ربت ولديهـــا على التـــزام الصمت فى المجالس الا اذا وجه اليهما الكلام

وكان القوم اذا ما فرغوا من العشــــاء ، كلف الشقيقــان بالذهاب الى بيت آل فوشــيه ، فاذا تأخر أوجين استعجله شقيقه فيكتور ، فان حال بينه وبين الذهاب الى بيت آديل حائل ما ، غمرت الكآبة نفسه واسودت الدنيا أمام عينيه !

وعلى الرغم من جو التزمت والوقار الذى كان يسود تلك السهرات ، فقد كان فيكتــور لا يتمنى الا أن يعــود اليها ، وذلك حتى يجد نفسه وجها لوجه أمام أميرة قلبه المتعطش الى الحب ويطيل النظر فى عينيها الحالمتين . وكانت آديل بدورها تتجاوز عن نظرات اوجين لتنظر خلسة الى فيكتور ،

(١) المنزل الذى كان يقيم فيه مسيو فوشيه واسرته

وقد ملأها الاعجاب بجبينه المرتفع ، وشعره الذهبى ، ونظرته البريئة الحانية ، وصعوده السريع الى النجاح

وما لبث فيكتور أن وجد نفسه ذات يوم وحيدا مع آديل ، وهما جالسان جنبا الى جنب تحت أشجار الكستناء ، فباح كل منهما بحبه للاخر

كان ذلك يوم ٢٦ ابريل عام ١٨١٩ م ، وكان فيكتور وقتئذ فى السابعة عشرة من عمره ، وكانت آديل فى السادسة عشرة . وكانت الفتاة أكثر منه جرأة وأشد رغبة فى الاستطلاع فأرادت أن تتبين معنى هذا الشعور الصامت الذى كان ينمو فى صدرها وينبض به قلبها على الدوام ، فقالت له يومئذ بعد أن تأملت وجهه طويلا بنظرة فاحصة :

ـ لا شك فى أنك تخفى بعض الاسرار .. أليس بينها سر يفوقها جميعا ؟

فلما أجابها فيكتور موافقا بعد لحظة صمت ، صاحت تقول له فى انفعال :

ـ وأنا كذلك !

ـ آه يا اديل !

ـ أطلعنى اذن على أهم أسرارك وأنا أفضى اليك بسرى العظيم

ـ حسنا .. أهم أسرارى أننى أحبك

فردت آديل قائلة فى بساطة ، وكأن كلامها صدى لكلامه

ـ وسرى العظيم هو أنى أحبك ..

وسرعان ما تحول الميل الحلو المعتدل الى « شعلة » حب لا يمكن أن تنطفىء .. !

وكان طبيعيا أن يتبادل الحبيبان الرسائل بين حين وآخر، ولكنها كانت فى أغلب الاحيان قصيرة فاترة ، وعلى أية حال فهى لم تحفظ . ثم جاء الصيف وذهبت أسرة فوشيه للاصطياف فى « اسى » بالقرب من باريس ، وكان ذلك مصدرا للأسى فى نفس فيكتور . وقد حاول الفتى عبثا أن يقنع نفسه بأن الرحلة من بيته بباريس الى « اسى » كالرحلة بينه وبين « أوتيل دى تولوز » ولكن الزيارات اليومية صارت متعذرة ..

فلما جاء الخريف ، رجعت أسرة فوشيه الى بيتها فى باريس ، وكان الشوق قد برح بالفتى وملك عليه كل مشاعره، فطرح جانبا التردد والجبن وأصبح عاشقا جريئا ، فصار يطلب من آديل أن توافيه فى أماكن يعينها لها فى مواعيد محددة ، فكانت تستجيب لطلبه وتصطنع لتحقيق ذلك شيئا من الحيلة . وكان لقاؤهما غالبا ما يتم فى حديقة « الاوتيل دى تولوز » حيث تقيم أسرتها ، فكانت آديل اذا ما غابت أمها تنسل للقاء فيكتور المتربص فى انتظارها تحت أشجار الكستناء ، وكانت تذهب أحيانا أخرى الى السوق بدلا منها فتسرع الى لقاء حبيبها فى أحد الشوارع الهادئة بعد أن تكون قد اشترت ما خرجت من أجله

وكان فيكتور قد نشأ نشأة جادة ، وكانت آديل من ناحيتها فتاة طيبة نقية متدينة تحبه كفتاة بورجوازية بسيطة، وكان هو يحبها حبا رومانتيكيا عظيما ، وكان كثيرا ما يناديها قائلا :

ـ آديل .. يا ملاكى !

فكانت تجيبه قائلة :
ــ لا تعتقد أنى ملاك ، فأنا من هذا العالم ..
ويسود الصمت بينهما لحظة ، ثم تسأله فجأة :
ــ ترى هل سأفهم الشعر ؟
فيجيبها قائلا فى اصرار :
ــ ان الشعر يا آديل هو تعبير عن الفضيلة
ــ وهل ستكون لى يا فيكتور على الدوام ؟
ــ بكل تأكيد يا عزيزتى ، فأنت الاولى والوحيدة .. وثقى أن سلطانك عظيم على نفسى ، حتى أن صورتك وحدها أقوى من كل ما يضطرم فى أعماقى ..
ــ آه ! لشد ما أحبك يا فيكتور !

ولما تحسنت صحة مسيو فوشيه ، أصبح يسره استقبال أصدقائه فى المساء ، وكثيرا ما كان بين الزائرين صديقات آديل وأصدقاؤها ، فكان فيكتور يجتمع « بالفتاة ذات الجمال الاسبانى » ويتحدث اليها ، ولكن الاجتماع كان بالطبع قصيرا يتم تحت أسماع الاخرين وأبصارهم ، وكان الحديث بدوره مقتضبا ، فكان لابد من اتمام ذلك عن طريق الكتابة

وكان تبادل الرسائل قد بدأ من قبل ذلك بين الحبيبين ، فكان كل منهما يضع فى يد الاخر رسالة غرام . وقال لها فيكتور وقتئذ فى رسالة اليها ، بعد ان ردت على احدى رسائله : « بعد ردك على يا آديل صارت عندى شجاعة الاسد »

ودام تبادل الرسائل بينهما ثلاث سنوات ، وعلى الرغم من ان رسائل فيكتور هوجو التى كتبها الى آديل فى عام ١٨١٩ لم

تحفظ ،فالراجح أنها لا تختلفعن أكثر رسائله التيحفظت.
وعلى أية حال ففى وسعنا ان نتبين من رسائلة وهو فىالسابعة عشرة أنه كان يفكر تفكير الرجال ، فهو واثق من نفسه ، واثق من اخلاصه فى حبه ومن شرف أغراضه ، ولا يخامره أدنى شك فى شجاعته وقيامه على عهد الوفاء ، فاذا لم يكن هناك مفر من الانتظار فانه ينتظر .. وان اعترضت طريقهمـــا العقبات ، فانه يتخطاها فى ثبات وعزم ، فهو لا يسلم بأن هناك شيئا مستحيلا ، وهو يعتبر ان آديل زوجته ، فنراه يوقع على أول رسالة منه اليها بكلمة : « زوجك » كما سيفعل ذلك على الدوام طيلة ثلاثة أعوام !

والواقع ان فيكتور لم يقبل قط فى هذه الفترة من حياته تلك العلاقات السافلة التى تتميز بها عادة تصرفات الشباب بين سن الخامسة عشرة والعشرين ، ولكى يحفظ الشـــاب طهارته فانه تشبث بحبه العذرى بكل قواه ، وكان يرى فى الزواج حفظا له ووقاية من كل سوء ، وكانت آديل تبدو له المرأة الوحيدة التى تستطيع ان تطرد عنه « الشياطين » وأن تكون له « حصنا ضد جميع النساء الاخريات »

وكانت آديل لا تزال صبية ، على الرغم من أنها كانت تقية فاضلة نبيلة الشعور ذكية الفؤاد .. كانت بريئة ورقيقـــة وحنونة ، ولكنها كانت تستجيب لحبه الناضج بحب ساذج أقرب ما يكون الى الطفولة ، وكثيرا ما كانت تتساءل : « ترى هل أستطيع أن ألعب دور الحبيبة الكبرى الذى يسنده الى؟» وما المعنى الحقيقى لهذه الكلمات : « انك ستنامين يوما بين ذراعى ، وستكون لذاتنا هى واجباتنا وحقوقنا ؟ »

وفى ديسمبر عام ١٨١٩ م ، كتب فيكتور قصيدة بعنوان

« التنهدات الاولى » ألفها خصيصا لآديل ومطلعها : « دعى زوجك يأخذ منك اثنتى عشرة قبلة كما وعدته» ٠فلما أهداها اليها وطالبها بانجاز ما وعدت ، ساومته وماطلت ولم تمنحه آخر الامر الا ثلاث قبلات ! وكان بالقصيدة كثير من نغمات الحزن واليأس ، ولكن ما كان أجملها فى نظر الفتاة التى قرأتها مرارا على انفراد وقد فاض كأس صباها بالغبطة والهناء

ومع ذلك ، فما لبثت القصائد والقبلات أن أصبحت مصدر قلق وانزعاج حين أفضت آديل بأمرها الى احدى صديقاتها فتحدثت هذه الى بعض بنات الحى ، وقالت لآديل :

ـ وهل تحبينه أنت ؟

فأجابتها آديل فى دهشة :

ـ وهل يسعنى الا أن احبه ؟

ـ وهل بحت له بحبك ؟

ـ وكيف أستطيع أن أخفيه ؟

ـ ولكنه لا يمكن أن يحترمك ما دمت لا تحترمين نفسك !

وخامر الشك نفس آديل وأخذت تسائل نفسها قائلة :

« ترى هل يؤدى التسليم بالحب الى فقد احترام الحبيب ؟ »

ثم جمعت أمرها أخيرا ، وقالت له فى ألم لما التقت به :

ـ قل لى يا فيكتور .. أصحيح أنك تحتقرنى ؟ هل يمكن أن تفعل ذلك ؟

فأجابها قائلا فى ذهول ، وقد عصفت الدهشة بفؤاده :

ـ كيف يخطر ذلك ببالك يا ملاكى العزيز ؟

وراح ينكر فى قوة ، ويجدد مخلصا عهد الوفاء ، وسرعان ما انقشعت سحب الشك من نفس آديل ، وعادت أوقات الصفاء .. ولكن الحبيبين اتفقا على عدم تبادل الحديث الا

اذا كانا على انفراد ، وعلى ان يتظاهر كل منهما أمام الناس بأنه لا يعرف الاخر ولا يشعر حتى بوجوده !

ولما كان الفتى فيكتور مطبوعا بحكم نشأته ــ كما سبق ان ذكرنا ــ على الجد والحزم والطهر ، فقد صمم على ان يعجل بالزواج منها مهما كلفه الامر ، ولكن .. انى لمن كان فى مثل سنه ان يظفر بالزواج ؟ ومن ثم هداه تفكيره الى حل يواجه به الموقف على طريقة « فرتر » ، فيتزوج آديل ولو لليـلة واحدة ثم يتركها أرملة فى هذا العالم ، وقال فى نفسه : « لخير لى ان أسعد بزواجها ليلة واحدة من أن أفقدها الى الابد ، ولن يستطيع أحد حينئذ ان يلومها أو يسىء اليها لانها ستكون أرملتى »

وقال فيكتور لآديل وهو يقنعها بوجهة نظره :

ــ صدقينى ياحبيبتى .. ان يوما من السعادة يفضـل عمرا كله آلام !

ــ كن عاقلا يا فيكتور ، وعهدى بك دائما انك ثابت رزين !

ورفضت آديل بالطبع ان تتبع فتى أحلامها فى هذا الطريق

* * *

وذات يوم ، حدث ما كان لابد أن يحدث ، فقـد انحنت الفتاة الشابة لتلتقط شيئا على مرأى من والدتها ، فسقطت من صدرها ورقة مطوية ما كادت « مدام فوشيه » تلقى عليها نظرة عاجلة حتى احمر وجهها من الغضب ، واخذت تؤنب ابنتها فى عنف ، وتهددها بأن تشكو الفتى الى «مدام هوجو»

ولم تخف آديل عن والدتها حقيقة العلاقة التى بينها وبين فيكتور ، واعترفت لها بكل شىء . وتشاور مسيو فوشيه

وزوجته طويلا فى الأمر ، فاستقر رأيهما أخيرا على أن الشابين يجب ان يتزوج كل منهما الاخر أو يقطع علاقته به

وفى اليوم السادس والعشرين من شهر ابريل عام ١٩٢٠ ، أى بعد عام تماما من اعتراف كل من فيكتور وآديل لصاحبه بحبه ، ذهب الوالدان الى بيت آل هوجو بشـــارع « بتى أوجيستان » فى « مهمة خاصة » ، فتوجس فيكتور خيفة من تلك الزيارة المفاجئة ، اذ كان يعرف أمه حق المعرفة ويعرف مدى الطاعة والاحترام اللذين كانت تتطلبهما من ابنائها

وذهلت السيدة صوفى هوجو حين علمت ان فيكتور يحب .. فيكتور الذى كان حتى الامس القريب يتعلق بأذيالها ! وفوق هذا ، فمن ذا الذى يقول ان ابن « الجنرال هوجو » الفتى اللامع الذى كانت تتوقع له مستقبلا مجيدا ، وتنتظر منه أن يكون « شاتوبريان » آخر ، سوف يتزوج فتاة بلا مهر « دوطة » ، ويفسد كل شىء من أجل ابنة « بيير فوشيه ؟ »

وصاحت مدام هوجو قائلة فى غضب : « لن يتم الزواج مادمت على قيد الحياة »وكان وقع هذا القرار على نفس فيكتور كالصاعقة ، فأغلق على نفسه باب غرفته وانخرط فى بـــكاء مرير لم يسبق ان بكى مثله من قبل ، ولكنه مالبث أن استسلم آخر الامر وكف عن رؤية آديل أو الكتابة اليها

وكانت آديل تواجه هذه المشكلة وحدها دون ان تدرى شيئا عما حدث، ولم يكن لها من أمل تتعلق به سوى آخـــر خطاب من فيكتور ، وهو الذى قال فيه :

« انهم لن يستطيعوا ان يفرقوا بيننا ، فاننى لك الى الابد»

ورأى فيكتور ان يكون خطابه هذا خطابا رسميا ، فوقع عليه باسمه الكامل خلافا لعادته

ومنذ ذلك الحين انغمس فى العمل ، واصبح هو المحرك الرئيسى لمجلة «المحافظ فى الادب»(١) وحرر فيها مقالات كثيرة بأسماء مختلفة

ومن الطريف ان فيكتور استطاع ان يتصل بآديل من جديد عن طريق المجلة ، اذ نشر فيها قصيدة غرامية لم تكن فى حقيقة الامر الا خطابا مقنعا الى خطيبته ، وبهذه الوسيلة استطاع ان يتسلل الى بيتها ، لان « مسيو فوشيه » كان من قراء هذه المجلة

وفى مرة أخرى نشر هو مقالا علق فيه على كتاب « فى الادارة » ألفه والد آديل ، ثم أهداه بعد ذلك نسخة مجلدة تجليدا فاخرا من أول ديوان شعر له ، فلم يكن أمام مسيو فوشيه هذه المرة الا أن يكتب خطاب شكر لفيكتور . وزاد الرجل على ذلك ، أن ذهب لزيارة السيدة صوفى هوجو لمجاملتها

وهكذا بعد أن تحسنت الامور ، استطاع فيكتور أن يخاطب آديل فى الشارع بعد عشرة أشهر من الفراق ، ولم تهرب آديل منه ...

يا لتصاريف الاقدار ! ففى اللحظة التى كانت فيها صوفى هوجو على وشك أن تكتشف عدم اطاعة ابنها لاوامرها ، ماتت المرأة المسكينة اثر مرض قصير فى السابع والعشرين من يونيو ١٨٢١

وفى نفس الليلة التى دفنت فيها ، كان فيكتور يحوم حول بيت آديل وحيدا يعتصر قلبه الالم ، وكانت الاضواء الساطعة

---

(١) Le Conservateur Littéraire

تنفذ من خلال النوافذ ، واستطاع فيكتور أن يرى مجموعة مرحة من الضيوف يرقصــون ، ومن بينهم آديل ، تراقص شابا لا يعرفه وقد ارتدت ثوبا أبيض وزينت رأسها بأزهار حمراء ! وتصلب قلب فيكتور حتى كاد يكف عن الحركة ! انه سوف يتذكر هذا المنظر الكئيب فيما بعد مرات كثيرة ..

وفى اليوم التالى ، أفهمته آديل ، وهى تبكى بين ذراعيه ، أن الحفل لم يكن الا للاحتفال بعيد ميلاد والدها

ولكن هذا لم يكن معناه أن الطريق قد أصبح ممهدا ليتزوج فيكتور من آديل ، فقد كانت هناك عقبــات كثــيرة لا تزال قائمة ، أولها أن فيكتور لا تتوفر فيه كلّ الشروط المطلوبة ، ولذلك قرر مسيو فوشيه أن يسافر فورا مع أسرته ليقضى الصيف فى بلدة « درو » على مســافة أربعين كيــلومترا من باريس ، حتى لا يضطر الى استقبال فيكتور فى بيته

وكان السفر الى بــلدة « درو » يكلف خمسة وعشرين فرنكا فى عربة نقل المسافرين التى تجرها الجياد ، ولما لم يكن فيكتور يملك فى حوزته مثل هذا المبلغ ، فقد قرر أن يقطع هذه المسافة سيرا على الاقدام ، وبدأ رحلته فى اليوم السادس والعشرين من يوليو أى فى اليوم التالى لرحيل آل فوشيه ، فوصل الى « درو » بفضل قوته ونشاطه فى ١٩ يوليو . ولما كانت « درو » بلدة صغيرة ، فقد استطاع أن يعثر على السيد فوشيه وابنته . وأمام اصرار فيكتور ومثــابرته ، لم يملك الوالد الا أن يســتقبل ــ مع زوجته ــ الشــاب الحزين ، وحينئذ أخبره فيكتــور برغبته فى الزواج من ابنته ، مؤيدا طلبه بأنه قد استطاع أن يحصل على معاش من الملك ، وكذلك

على موافقة والده . والواقع انه لم يكن قد حصل على شيء من هذا أو ذاك ، وانما كانت هى رغبته التى لاتقهر فى أن يجعل آديل أسعد مخلوقة على وجه الارض

وقبل السيد فوشيه ، بدون اقتنـــاع كبير ، أن تعقد خطوبة فيكتور على ابنته بصفة غير رسمية ، ولكن العراقيل ما لبثت أن أخذت تسد عليه السبيل ، فهو لم يستطع أن يعتمـد على أى عون مالى من والده الجنـرال ، الذى كان يقطن مدينة بلوا ، والذى كان قد تزوج عشيقته بعد وفاة زوجته بشهر واحد

وكان الوالد يرى أن مهنة الأدب لا يمكن أن تكفل لفيكتور أن يعول أسرة فى يوم من الأيام ، ومن ثم فيجب أن يعمـــل ابنه على أن تكون له وظيفة ما . أما فيكتور ، فقد كان على العكس من والده مقتنعا بأن مستقبله ككاتب سوف يضمن له دخلا كافيا ومعونة من الملك فى آن واحد

ولكن كان عليه ، حتى تتحقق هذه الآمال ، أن يعيش فى مسكنه الحقير بشارع دراجون ليعرف أقسى أنواع الفقر ، وليعيش حيـــاة طالب بائس يقضى يومه على رغيف من الخبز

وكان فيكتور أثناء ذلك يريد حبيبته كاملة لا يشـــوبها نقص ، ولا يمكن أن يوجه اليها أى نقد ، فلم يقبل أن تتفوه بكلمة واحدة فى غير موضعها ، أو أن يرى زرا واحدا ناقصا فى ثوبها .. واذا حدث وكانت تسير فى يوم مطير أو طريق موحل ، ورفعت ذيل ثوبها الى أعلى أكثر مما يلزم ، كتب اليها يقول :

« استمعى الى يا آديل .. اننى أحب أن تكونى أقل خوفا

على ثوبك من أن يتسخ بالوحل ، فالحياء أثمن عندى من أى ثوب ... »

وكانت دروس الرسم التى تأخذها ، تجرح مشاعره بما فيها من دراسة للأجسام العارية . وذات يوم جاء ذكر الخيانة الزوجية ــ أثناء مناقشة معها ــ وحينئذ عبر فيكتور عن رأيه بقوله : « فى هذه الحالة ، فاننى أما أن أقتل غريمى أو أن أقتل نفسى ... » ، فما كان من آديل حين سماعها ذلك الا أن أحست بسعادة غامرة من أجل تشدده وغيرته اليقظة ، ولكنها فى الوقت نفسه أحست بالخوف منه!

وانقضى العام الثالث ، منذ أن أعلن كل منهما حبه للآخر ، وبدأ نجم فيكتور فى الصعود بعد نشر ديوانه الأول ، ولم يكف هذا النجم عن الصعود بعد ذلك أبدا . وكانت آديل مصممة على الزواج منه ، سواء وافق على ذلك الجنرال هوجو أم لم يوافق حتى ولو أدى الأمر الى أن يختطفها فيكتور .. اذ أن هذه الفتاة الشابة المحافظة ، قد أصبحت لا تقل حماسا عن حبيبها

وأخيرا حدثت المعجزة واستطاع فيكتور فى ١٨ أغسطس عام ١٨٢٢ أن يحصل من الملك على معاش سنوى قدره ألف ومائتان من الفرنكات ، فلم يعد عليه بعد ذلك الا أن يخطو خطوة يتقرب بها الى والده فيعترف بزواجه من عشيقته ، وبعدها يفوز بموافقته على الزواج من آديل ..

ونفذ هوجو الخطة ، ووصله خطاب من والده يوافق فيه على زواجه ..

ولم تتسع الدنيا لفرحة الشاعر الشاب ، فكتب الى آديل يقول :

« عزيزتى آديل ..

بعد أن أمضيت ليلتين سعيدتين ، ليلة الأمس وليلة أمس الاول ، هأنذا أقضى الليلة فى البيت .. ولابـــد لى من أن اكتب اليك ، وهل هنـــاك ما يمكن أن اخفيه عنك أيتهـا الانسانة الجديرة بالعبادة ؟

آه ، يا الهى ! .. لقد كنت أسائل نفسى كل دقيقة طيلة هذين اليومين : احلم أم حقيقة ما اشعر به من سعادة ؟ انه ليخيل الى يا عزيزتى أن ما أحســــه ليس مما يتاح لبنى البشر ، ولست أستطيع أن أصور صفاء تلك السماء الحلوة التى أحيا فيها !

دعينى، ياعزيزتى، أطرح نفسى بكل تواضع عند قدميك.. فأنت عظيمة ورقيقة وقوية الى أبعد حد ، وقد كنت اظن أن أبعد حد يمكن أن يصـــل اليه اخلاصى لك هو التضحية بحيــاتى .. ولكنك كنت ، أيتها الحبيبة الـكريمة ، على استعداد للصبر والاحتمال والتضحية من أجلى . لقد كانت هذه الأيام الثمانية تبدو طويلة كالأبد ، وكنت أحيـانا على استعداد لأن أقبل عطايا حبك النبيل ، وكنت أيضا أنوى ، فى حالة ما اذا وضـــعنى والدى فى مأزق حرج ، أن أجمع بعض المال ، ثم أصطحبك الى مكان بعيد ، حتى نكون بمنأى عن أولئك الذين يريدون التفرقة بينى وبينك . وقد تخيلت أننا ربما نجتاز فرنسا ، وقد أدعى إسميا اننى زوجــــك ، ونذهب الى بلد آخر نستطيع فيه أن نتمتع بحقوقنا ، وكنت أحلم بأننا نسافر سويا فى نفس العربة ، وننـــام تحت نفس السقف !

ولكن ، لا تعتقدى يا حبيبتى النبيلة ، أنى قد أستغل مثل

هذه السعادة .. فلو حدث وسافرنا سويا فسوف تكونين موضع كل احترام وتقدير ، لأنك يا آديل أسمى مخلوق أحترمه ، فكان من الممكن اذن أن تنامى معى فى غرفة واحدة أثناء الطريق ، دون أن تخافى أن أفزعك بلمسة واحدة ، أو حتى بنظرة واحدة ..

آديل ! لا تكرهينى لاننى كنت تعسا ضعيفا ، فى حين كنت أنت قوية نبيلة .. فكرى فى حرمانى ووحدتى ، وفيما كنت اتوقعه من والدى .. فكرى فى أننى بقيت أسبوعا بأكمله اتوقع أننى سوف أفقدك .. وحينئذ لن يدهشك يأسى يا حبيبتى . والآن ، ألا أكون على حق لو أننى اعتقدت أننى أتملق الملائكة اذا ما قارنت بينك وبينها ؟ ان ميزتك هى أن الطبيعة قد وهبتك كل شيء : النبل والجلد والدموع . آه يا آديل ! لا تظنى أن كلماتى هذه تنبع من حب أعمى ، فحبى لك يا عزيزتى سوف يظل طيلة عمرى ، بل وسيزداد نموا يوما بعد يوم ، ولولا أننى أشعر بأن وجودى كله ملك يديك لفقدت حياتى سر الاتزان ، ولكان الموت نهايتى المحتومة

تلك كانت خواطرى يا آديل لما وصلنى الخطاب الذى يحمل بين طياته الأمل .. واذا كنت تشعرين نحوى بالحب ، فلا شك فى أنك سوف تقدرين مبلغ فرحى ، ولن أحاول هنا أن أصف ما أعلم أنك سوف تشعرين به يا آديل .. أيتها المخلوقة العزيزة !

اننى لأتساءل : لماذا لا يوجد فى قاموس اللغة كلمة أو كلمات أخرى غير كلمة الفرح ؟ يا الهى! أيكون هذا لأن البيان الانسانى ليس من القوة ليعبر عن سعادتنا ؟

ان هذه الوثبة المفاجئة من الحزن والاستسلام ، الى السعادة الغامرة ، قد أوقعتنى يا عزيزتى فى دوامة من

الاضـــــطراب ! وحتى هذه اللحظة ، لا أزال فاقدا زمام السيطرة على نفسي .. اننى أحيانا أرتجف خشية أن أكون فى حلم قدسى سأصحو منه فجـــأة ! فهأنتذى يا عزيزتى قد أصبحت أخيرا لى ، وفى خلال بضعة أشـــهر ، سوف تنامين بين ذراعى وتستيقظين بين ذراعى ، بل وسوف تكون حياتك كلها بينهما أيضا . ان جميع أفكارك فى كل الاوقات ستكون ملكا لى ، وكذا كل أفكارى وأوقاتى ستكون ملكا لك يا آديل .. انك الآن يا عزيزتى على وشك ان تنتسبى الى ، فكأن هذه دعوة لى لأتذوق السعادة السماوية وأنا لا أزال على الأرض .. اننى أتصورك كزوجة صغيرة لى ، ثم كأم شابة ، ولكنك دوما ستكونين بالنسبة الى شيئا واحدا : آديل المعبودة الرقيقة .. آديل التى سوف تبقى فى طهارة الحياة الزوجية ، تماما كما كانت عند بداية حبها العذرى

وداعا ياملاكى العزيز ، وداعا يا آديل الحبيبة .. دعينى الآن اقبل خصلة شعرك التى أحتفظ بها على الدوام ، ثم اذهب الى فراشى .. حقا اننى لا أزال بعيدا عنك ، ولكننى أستطيع ان أراك فى أحـلامى .. وداعا ياحبيبتى ، وكونى على يقين من أن زوجك سوف يكون شغله الشاغل أن يعبدك طيلة هذه الحياة ، والحياة الأخرى »

وتقرر أن يعقد القران فى ١٢ أكتوبر عام ١٨٢٢

وفى اليـــوم المحدد ، وقف هوجو بين شاهدى زواجه « الفـــريد دوفينى » و « دوق دى روهان » ، وها هو ذا يصـــبح أخيرا زوجا لحبيبـــة قلبه آديل . وأقيم لهـــذه المناسبة حفل راقص ببيت « مسيو بيير فوشـــيه » ، وفى هـــذه المرة كان فيـــكتور هو الذى يرقص مع آديل بقلب تغمره السعادة ويطير به الهناء


الأسرة المقدسة

الأسرة المقدسة

أخذت الأيام تمر بالزوجين الشـــابين هانئة وادعة فى شقتهما الصغيرة التى استأجرها هوجو بشارع « فوجيرآر » ولكن لم تكد تنقضى أيام على ليلة الزفاف حتى ساءت حال « أوجين » ، شقيق فيكتور ، اذ كان المسكين يهيم حبا هو الآخر بآديل فوشـــيه التى صارت الان زوجة أخيه ، ولم تمض أسابيع حتى اقتضى الأمر ايداعه بأحد مستشـــفيات الأمراض العقلية !

وكانت الفترة فيمـــا بين عامى ١٨٢٢ و ١٨٣٠ فترة سعادة بمعنى الكلمة ، نعم بها « الملاك فيكتور » و « امرأة الجنـــة فى الأرض » كما كان يســـميهما أصـــدقاؤهما « ألكسندر دوماس » و « ألفريد دوفينى » و «لامرتين » وغيرهم من الشعراء والأدباء الذين كانوا يترددون بين حين وآخر على بيت الشاعر الشاب لمناقشة مسائل الشـــعر والأدب والنقد ، والذين كانوا يطلقون عليهما اسم « الأسرة المقدسة »

وفى هذا المسكن الصغير الذى ، شـــهد أعواما ثمانية من السعادة الزوجية ، ولدت آديل لفيكتور هوجو طفلة هى أولى أولادهما ــ فى ٢٨ أغسطس من عام ١٨٢٤ ــ فسمياها « ليوبولدين » وأطلقا عليها تدليلا اسم « ديدين » Didine

وذات يوم من أيام عام ١٨٣٠ ، هبت ريح غير مواتيـــة عصفت بثمانية أعوام من السعادة والوئام !

ففى ذلك اليوم ، دخل حياة أسرة فيكتور هوجو الهانئة شاب خجول ، ضعيف البنية ، أحمر الشعر ، لا يتمتع بشيء من الوسامة يدعى « سانت بوف » الناقد العبقرى والكاتب الشهير ..

وكان سانت بوف قد نشر مقالا فى مجلة « لوجلوب » أثنى فيه ثناء عاطرا على فيكتور هوجو وموهبته الشعرية ، وما لبث أن أصبح أكبر المدافعين عنه

ولم يكن هوجو يعرفه من قبل ، وسره أن يعرف أن الناقد الكبير يقيم على قيد خطوات من بيته بشارع « فوجيرار » ، فدعاه هوجو الى منزله ، وسرعان ما أصبح سانت بوف من أصدق أصدقائه ..

فى ذلك الوقت كانت الظروف كلها تمهد لخيانة آديل لزوجها ، انها كانت قد أخبرته بعد ولادة اربعة أطفال أنها قد تعبت من الأمومة ، ليس هذا فحسب وانما ملت انكباب زوجها عليها بطريقة غير عادية ، وأصبحت تشعر بأنها تتحمل قبلاته أكثر مما كانت تتجاوب معها ، وكان فيكتور حينئذ يقول لها : « حبيبتى آديل : أليست قبلاتى كريهة الى نفسك ؟ آه ! اننى أتوسل اليك ان كنت تحبيننى أن تتنازلى وتتجاوبى مع مداعبات زوجك »

انها الان ، قد أصبحت سيدة شابة ذات غرائز هادئة ، تشعر بأن فيكتور ليس رجلها الذى كانت تحلم به ، فهو يخضع حياته كلها لمجده ، ومن ثم فقد رسخ فى ذهنها أنه لا يهتم بها .. وبالاختصار ، أصبح من الصعب على آديل أن تلعب دور زوجة الرجل العبقرى ، انها هى نفسها فى حاجة الى الاهتمام والاطراء ، وهاهى ذى تجد فى هذا الشاب

الرقيق الساحر الحديث من يحقق لها تلك الرغبة

كان سانت بوف يتردد على بيت هوجو كل يوم تقريبا ، ويجلس أوقاتا طويلة مع آديل ، التى كان زوجها الشاعر يظل طيلة الوقت فى الخارج ليرتب أمر الحفلة الافتتاحية التى ستعرض فيها مسرحية لوكريس بورجيا على مسرح « التياتر فرانسيه »

وحدث ما كان متوقعا ، فقد أحبت آديل الناقد الشهير الذى يهتم بها ويطرى جمالها وأنوثتها بأسلوب هادىء رزين .. فتلامست أيديهما ، ثم تقابلت شفاههما ، وسرعان ما عرفت باريس كلها شقاء الشاعر !

ثم حدث ما هو أكثر من ذلك ، فان آديل التى كتبت فيما مضى تقول لفيكتور : « لم يبق سوى ثلاثةأشهر وأكون الى جوارك دائما » ، تكتب اليه لتطرده من حياتها :

« اننى لم أفكر فى أن تكون حرا وتصبح كمن لم يتزوج »

ودون هوجو فى مفكرته هذه الكلمات التى تقطع نياط القلوب :

« انظر الى هذه المرأة ! انها لا تحبك ، وهى فى الوقت نفسه لا تكرهك ! انها لا تحبك ، وهذا هو كل شىء ! »

ان حب آديل الكبير قد تضعضع وأصبح على وشك أن يخمد ، وأصبح الشاعر الان بدافع من يأسه البالغ عرضة لان يندفع فى أول مغامرة عاطفية أو جسدية تعوض له هذه الخيانة القاسية أو توازنها ، وسرعان ما أقبلت هذه المغامرة


لقاء فى مسرح

لقاء فى مسرح

ذات ليلة كان فيكتور هوجو فى مسرح « التياتر فرانسيه » ليستمع الى الممثلين ، وهم يقرأون أدوارهم فى مسرحيه « لوكريس بورجيا » أثناء البروفات التى تجرى على هذه المسرحية استعدادا للحفل الافتتاحى ، وكان من بين الممثلات، ممثلة فاتنة تدعى « جولييت دروويه » قبلت عن طيب خاطر أن تمثلَ دورا صغيرا فى هذه المسرحية ، هو دور الاميرة « نجرونى » . ولم يكن هوجو يعرفها ، ولكن سبق له أن رآها من بعيد فى حفل راقص ذات ليلة من ليالى شهر مايو عام ١٨٣٢

وكانت جولييت فتاة بيضاء ، فى السادسة والعشرين ، ذات عينين سوداوين ، وقوام فارع ، وجمال كان يعد أروع والمع جمال فى باريس ، حتى أن هوجو نفسه لم يجرؤ أن يخاطبها فى تلك الليلة .. اما الان ، فها هى ذى أثناء القراءة ترفع اليه بين حين وآخر نظرات فيها استلطاف واستسلام ، كان لها وقع السحر فى قلبه الخالى الحزين .. فأخذ يكثر من الحديث عنها ، ولما سأل عنها عرف الكثير

ولدت جولييت فى بلدة فورجير عام ١٨٠٦ ، وكان أبوها يعمل حائكا للثياب ، ومات عنها والداها وهى لم تزل طفلة فى المهد ، فعهد بالطفلة اليتيمة الى خال لها يدعى الملازم رينييه دروويه كان يعمل ضابطا بمدفعية السواحلَ فى مقاطعة بريتانى ، وكان هذا سببا فى ان تكون طفولتها قاسية ممزقة من كل النواحى

وحين بلغت جولييت العاشرة ، ألحقهـا خالهـا دروويه بالقسم الداخلى من دير خاص باحدى الطوائف الدينية .. وهناك سرعان ما فازت بحب الراهبات جميعا ، ونالت من عطفهن وتدليلهن الشىء الكثير ، ولكنها كانت مع ذلك فتـاة لطيفة وادعة حسنة التربية الى حد يثير الاعجاب . وهناك أيضا خاطرت بأن تنطق بأمنيـات ودعوات تنطوى على عـدم الحذر وقلة المبالاة ، دون أن يتدخل فى ذلك أسقف باريس الذى لاحظ تلك المخلوقة الجميـلة ذات يوم أثنـاء زيارته للدير ، فاقتنع بعد أن ناقشها وألقى عليها بضعة أسئلة بأن الحياة وراء جدران الاديرة لا تلائم طبيعة هذه الفتاة ، فأُطلق سراحها ..

وزج بها جمالها الفريد وجسمها البـديع كاملَ التكوين فى عالم الفن ، فعملت فى عـام ١٨٢٥ م ــ وكانت حينئـذ فى التاسعة عشرة ــ كموديل عند الفنان جيمس براديه ، وهو نحات كان فى السادسة والثلاثين من عمره حينما تعرف الى جولييت

وكان براديه انسانا مشغوفا بالنساء ، ولكنه كان خفيف الظل لا يميلّ الى القسوة ، وعملت جولييت عنده فترة من الوقت ، وقد رسمها وهى عارية ، وحملت منه ، سفاحا ، طفلة أسمتها « كلير » ولكنه لم يعترف بها أو ينكرها

وفى عام ١٨٢٦ التحقت جولييت بمعهد التمثيل ، وأخذت تحلم بزواج برجوازى ، وكان براديه قـد دفع بهـا نحـو المسرح ، وأخذ يزودها بنصائحه الذكية فى هـذا المجـال . ومثلت جولييت بنجـاح أدوارا ثانوية فى بروكسـل ، ثم فى

باريس ، ولكن نجاحها كان يرجع الى جمالها أكثر مما يرجع الى مواهبها ، اذ كانت ممثلة يعوزها الاعداد

وكثيرا ما كانت جولييت تبكى خشية الا تصل الى قمة النجاح الذى كانت تنشده ، وكانت تكتب الى براديه لتفضى اليه بمخاوفها ، فكان يرد عليها قائلا : « عليك أن تتغلبى على الظروف ! واحرصى على أن تكونى محبوبة من الناس ولاسيما الممثلات ، فهن فى كل البلاد شيطانات مريدات .. ! » وكان براديه يوقع خطاباته لها بالصديق ، والعشيق ، والوالد المخلص !

وكانت جولييت قد أعطت نفسها لعشاق كثيرين ، من بينهم رجل ايطالى صفيق فى الثالثة والخمسين من عمره يدعى بارتولوميوبنللى ، ورسام مناظر مفلس يدعى شارل سيشان ، وكاتب صحفى جرىء يدعى ألفونس كارل ، ثم الى أمير ثرى عاطل اسمه أناتول ديميدوف أثث لها فى عام ١٨٣٣ شقة فاخرة فى باريس

وعلى الرغم من تلك الحياة العاهرة التى عاشتها جولييت ، الا أنها كانت تحتفظ فى شعورها بنضارة حقيقية وميل الى الاحلام ، وحب كبير لابنتها ، ونظرات جميلة ساحرة « تفيض أحيانا بمرح سماوى وسحر أخاذ »

وفيما بعد ، سيكتب هوجو فى مفكرة جولييت : « فى اليوم الذى التقت فيه نظرتك بنظرتى لاول مرة ، انبعث شعاع من قلبك الى قلبى كما يطلع ضوء القمر على الخرائب »

والواقع أن كلا منهما يجد نفسه دون أن يدرى أمام انسان مصدوم محطم ، فقد كان هوجو بسبب فقدانه لاديل فى حاجة لان يستعيد بالحب ثقته فى نفسه ، أما جولييت

التى لم تعرف سوى اللذة الحسية فكانت تريد منــذ أن كانت فى السادسة عشرة ان تصبح « رفيقة محبة لرجل شريف »

واخذت جولييت ، اثناء بروفات مسرحية لوكريس بورجيا ، تضاعف من دلالها واثارتها لهوجو الذى كان يتخذ موقف المدافع عن نفسه ، فقد كان مركزه ومنزلة أسرته وأولاده يحتمان عليه أن يتخذ هذا الموقف

لقد كان الشاعر يخشى المثلات « ومضايقات الكواليس » ولهذا كان موقفه يتسم بالحذر والوقار

ان استقبال الجمهور لمسرحية « الملك يلهو » بالصفير ، جعله يرتب الحفل الافتتاحى لمسرحية لوكريس بورجيا بدقة كبيرة تليق بضابط عظيم ، فجاء العرض نصرا رائعا . أما جولييت فقد سحرت لب الجمهور على الرغم من قصر دورها ، وكتب هوجو يقول مسجلا رأيه فيها بسرور : « يا للجمال والروعة ، ويا للقامة الساحرة والكتفين البديعتين . . ! انها مجموعة من التعبيرات المتقنة والانفعالات العميقة ، وستصبح ممثلتنا الاولى فى هذا النوع من المسرحيات بعد عام واحد من التدريب ! »

غير أن هوجو كان مخطئا ، لا بالنسبة لجمالها وانما بالنسبة الى مواهبها ، فقد كانت جولييت ممثلة غير حاذقة بسبب تكلفها الكبير ، ولكن . . هل يصدر الحب أحكاما عادلة ؟

لقد كان هوجو يحبها ، وكان يذهب الليلة تلو الليلة الى مسرح سان مارتان ليستمتع خلال فصل من فصول مسرحيته بوميض هاتين العينين الجميلتين المتطلعتين اليه على الدوام !

لقد كان الاغراء ينهش قلبه .. فآديل ، كانت ترفض فى اصرار ان تمطى اليه نفسها منذ زمن طويل ، وعلى الرغم من انتصاره الظاهرى ، كان الشاعر يطوى جناحيه على الم دفين

وكان هوجو يزور جولييت كل ليلة فى غرفتها الخاصة بالمسرح ليزودها بنصائحه ، فتثمل نفسه من كل هذا الجمال الذى يعرض نفسه عليه . ولم تكد تنقضى على ليلة افتتاح مسرحية لوكريس بورجيا اربعة أيام ، حتى كان يقول لها : « أحبك ! » ، وكان هذا ماتنتظره جولييت وتتمناه

وفى ليلة السبت السابع عشر من فبراير — وقد ظل هوجو وجولييت طيلة حياتهما يعتقدان مخطئين أن ذلك كان يوم ثلاثاء — فى تلك الليلة ، توجه الكاتب والممثلة بعد عرض لوكريس بورجيا الى حفل راقص كان يقام فى المسرح ، وقررا أن يقضيا هذه الليلة عند جولييت فى مسكنها بشارع سان دنيس ، وذلك حتى يتم اعداد « عش غرامهما » فى شارع ليشيكييه . وكتبت جولييت الى هوجو تقول :

« احضر الى الليلة لتأخذنى من عند مدام كرافت يا «مسيو هوجو » . ان حبى لك سيمنحنى الصبر حتى هذه اللحظة ، فالى اللقاء فى هذا المساء .. آه ! ياله من مساء سيكون حافلا بكل شيء .. اننى سأهبك نفسى بأكملها .. »

وبعد ذلك بثمانية أعوام ، كتب هوجو مذكرا اياها بذلك اليوم فقال :

« هل تذكرين ليلتنا الاولى ياحبيبتى ؟ لقد كانت ليلة كرنفال ، وكان اليوم هو الثلاثاء من فبراير عام ١٨٣٣م . ولازلت أذكر ان مسرحا ما كان يقيم حفلا راقصا ، وذهبنا معا

الى هناك .. ان ذكرى هذه اليلة لن تنمحى أبد من ذاكرتى ، وكل ساعاتها تمر أمام مخيلتى فى هذه اللحظة الواحدة تلو الاخرى .. لقد كان من الضرورى أن تذهبى الى ذلك الحفل الراقص ، ولكنك لم تفعلى وآثرت أن تنتظرينى .. ياللملاك المسكين ! كم أنت محبة جميلة .. لقد كان الهدوء الحلو يشمل جو غرفتك الصغيرة ، وكانت ضوضـــاء باريس وهى تغنى وتضحك تتناهى الى اسماعنا من الخارج ، وفى وسط هـــذا الاحتفال الكبير كنا قد أخفينا احتفالنا فى الظـــلال .. لقـــد كانت نشوة باريس زائفة ، أما نشـــوتنا فكانت هى النشـــوة بمعنى الكلمة !

ياملاكى العزيز .. لاتدعى هذه الساعة العجيبة تنمحى أبدا من ذاكرتك ، فهى التى غيرت مجرى حياتك .. لقد كانت هذه الليلة ، ليلة السابع عشر من فبراير عام ١٨٣٣ مقدمة ورمزا للشىء المجيد الكبير الذى كان على وشك أن يتم فى نفسك . لقد تركت فى تلك الليلة كل الضوضاء الزائفة بعيدا فى الخارج ، وأتيت لتدخلى فى الوحدة والحب ..! »

لقد كان هوجو منتشيا ، فآديل التى كان يشتهيها كثيرا فيما مضى لم تنجح فى أن تمنحه سوى نوعا من الهدوء الممتزج بالخوف : هدوء الزوجات الشابات .. وفجأة ، اصبحت له حبيبة نادرة الجمال :

« ان عينيها الصافيتين كاللؤلؤ ، وجبينها الباسم الوضاء ، ورقبتها ، وذراعيها ، وكتفيها ، كل ذلك له روعة وكمال التماثيل القيمة . ان جولييت ، تستطيع بحق أن تكون مصدر الهام للمثالين .. انها يمكن أن تتفوق على فتيات أثينا الشابات فى مسابقات الجمال التى كن يخلعن فيهـــا غلالاتهن امام

براكسيتيليس ، وهو يعمل فى تمثال فينوس ..
وفى تلك الليلة منحت جولييت نفسها لرجل فى الثلاثين من عمره لم ينم الا على فراش الزوجية ، رجل موهوب يعرف كيف يتذوق اللذة ويمنحها فى آن واحد .. ان مداعبات الحب فن كالشعر ، وكانت جولييت رائعة فى هذا الفن !
وكان الحديث مع جولييت له سحر آخر ، فقد كان هناك الكثير مما يمكن أن تحدثه عنه : اقليم بريتانى حيث ولدت ، وفترة التلمذة فى مدرسة الراهبات ، والبؤس والشقاء .. وكان بدوره لديه الكثير الذى تسمعه منه ..
وكانت جولييت تشبع فضول الكاتب بما ترويه له من أقاصيص كثيرة عن حياتها الشاقة الحافلة بالمغامرات ، وكانت تقول له فى لهجة تشيع فى نبرتها رنة فخر : « اننى من الشعب » ، وكان « البارون هوجو » رغم ما فيه من غرور ساذج لكونه من سلالة نبيلة ، يتوق الى معرفة الشعب .. وفضلا عن ذلك ، فالشاعر فى حاجة دائما لان يفهم ، وقد تلقت جولييت قصائده من أجلها فى سرور يفوق سرور آديل بكثير ، فهذه الزوجة الخاملة لم يكن يبدو أنها مهتمة بمخطوطات زوجها ومسوداته . أما جولييت التى تهوى بطبيعتها جمع التحف والاثار الادبية ، فانها تحتفظ بكل شىء وفى ولاء وتقديس . انها تعطى للمجد طعما ، والمجد وحده عذب المذاق ، ولهذا فهى جديرة حقا باهداءاته الجميلة ..
لقد كان هذا الحب بالنسبة اليه بمثابة عودة الروح بعد عام من الذل والهوان ، وكان قضاء الليالى مع عشيقته بعيدا عن بيته أمرا يسبب له الخوف ، ولكنه سرعان ما أصبح بالنسبة له مدعاة للفخر

وكان يحدث كل الناس عن غزوته تلك ، حتى سانت بوف الذى كان يهز كتفيه ويعقب قائلا وهو يضحك :

« أن هوجو يبوح لى بسره ، وكأنه رجل ليس له من عيب الا حبه للنساء أكثر من اللازم . انه يدعى أنه لايفكر فى مجده على الاطلاق ، ان نفوسنا تنطوى دائما على عيبين اثنين .. العيب الذى نعترف به وذلك الذى نخفيه .. »

وكانت باريس كلها تتحدث بالطبع عن مغامرة الشاعر ، وكان هناك أصدقاء مخلصون من أمثال فيكتور بافى كانوا يحسون بالقلق ، ولكن هوجو كان يريد أن يعتقد أن هـــذه السعادة لايمكن أن تكون سعادة آثمة . كتب هوجو الى فيكتور بافى يقول :

« اننى لم أخطىء قط فى حياتى مثلما أخطأت هذا العام ، ولكننى لم أكن أبدا سعيدا أكثر مما أنا الان . اننى الان أساوى أكثر مما كنت وأنا برىء ، الامر الذى تشعر له انت بالاسف . حقا اننى كنت فيما مضى انسانا بريئا ولكننى الان شخص متسامح ، فلى صديقة عزيزة طيبة ، وهى ملاك أحترمه تماما مثلما تحترمه أنت ، انها تعرف ذلك ولكنها تحبنى وتغفر لى »

وكانت آديل هى ملاك الغفران الذى يتحدث عنه ، والواقع أن تمثيل دور الملاك كان أمرا سهلا بالنسبة اليها . وكيف تستطيع أن تطالبه بعدم الخيانة وهى التى لم تعد تريد أن تكون زوجته ؟ ومن ناحية أخرى ، كانت الحياة العائلية مستمرة بينهما ..

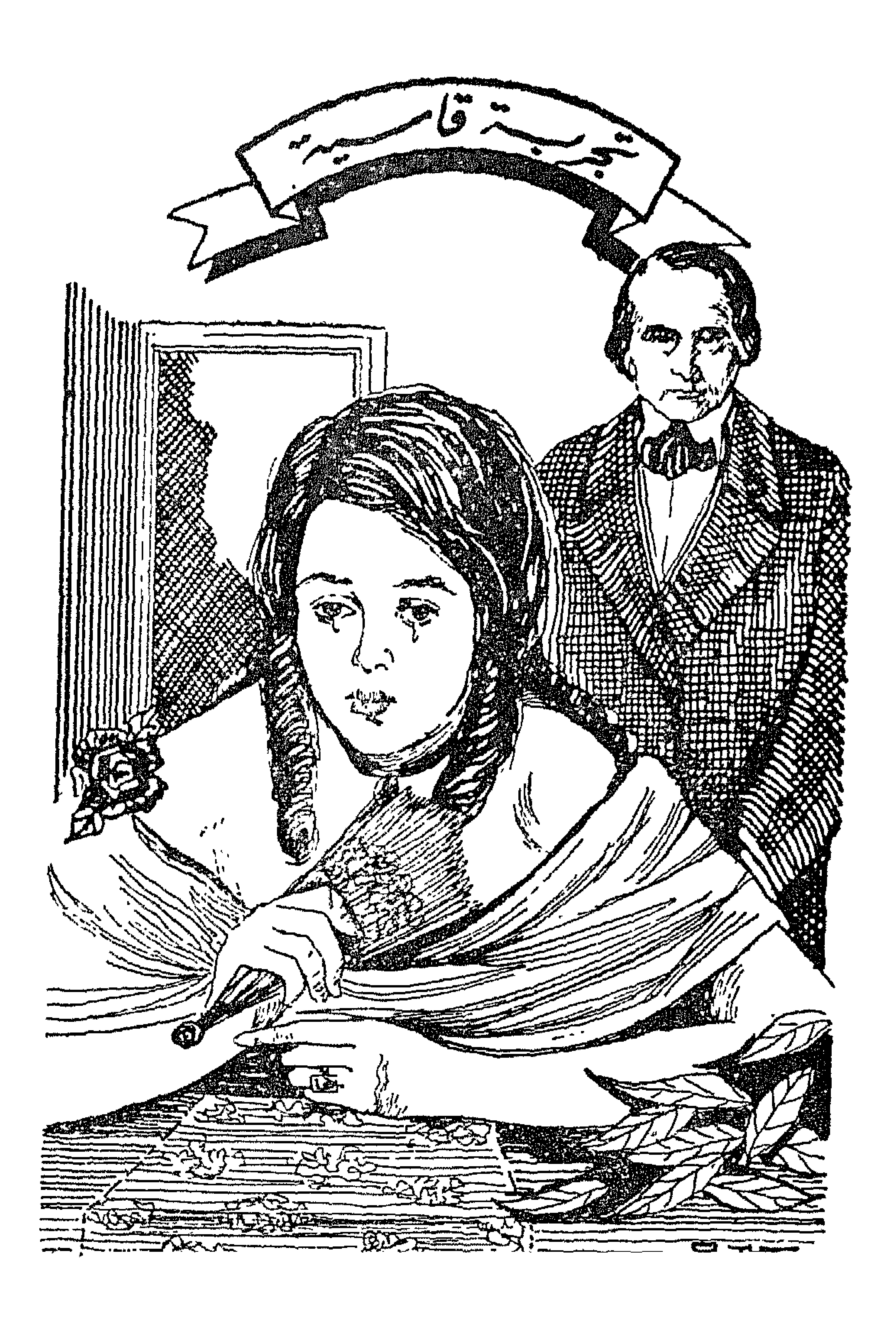
وسافرت آديل فوشيه زوجة هوجو الى المصيف ، وكان هوجو أثناء ذلك فى باريس يصحب جولييت الى شقة ميدان رويال ، وفى اليوم التالى كتبت اليه جولييت تقول :

« كم كان لطيفا أن تفتح لى باب بيتك وتجعلنى أرى ذلك المكان الذى تعيش وتحب وتفكر فيه . لقد كان ذلك بالنسبة الى أكثر من مجرد اشباع الفضول ، واننى لاشكرك على ذلك .. وحتى أكون صريحة معك أيها المعبود العزيز ، فاسمح لى أن أخبرك بأننى قد خرجت من هذه الزيارة وأنا أشعر بحزن مريع ويأس قاتل ! لقد أحسست أكثر من أى وقت مضى بمدى انفصالى عنك . ولكن ذلك ليس خطأك ، ولا هو خطئى كذلك ، ياحبيبى المسكين .. ان الامور هى التى تسير هكذا ، وليس من المعقول أن أنسب اليك قدرا من شقائى أكثر مما تستحق . ومع ذلك ، فليس فى وسعى أن أدعى أننى أتعس النساء

فاذا كنت تشعر نحوى ببعض الشفقة ، فانك حتما ستساعدنى على الخروج من هذا المأزق المذل الذى يعذب نفسى وجسدى فى وقت واحد .. اننى أتوسل اليك أيها الملاك الطيب أن تساعدنى على النهوض ، فذلك يجعلنى أثق فيك وفى المستقبل .. »

ياله من تواضع مخلص لاتنقصه الصراحة ! ان مأساة جولييت كانت أنها قد أصبحت فيما مضى عاهرة بكل «براءة» ولما لم تجد جولييت من الرجال سوى العنف والوقاحة ، كان طبيعيا أن تطلب من الامير ديميدوف وأمثاله أن يوفروا لها على الاقل حياة مترفة

والان ، هاهى ذى تحب سيدا يطلب منها الكثير ، سيدا يكره كل ماهو حقير ، ولا يقبل التقسيم لانه قاسى الامرين من الغيرة حتى أصبح لايقبل الا كل ماهو ثقة أكيد . لقد كان يحبها حبا كاملا خالدا عميقا حنونا لاحد له ، ولذا كان يريدها كاملة نقية جميلة ..


تجربة قاسية

تجربة قاسية

لم يكن لدى جوليبت وسيلة تعيش منها سوى أولئك الاشخاص الاثرياء الذين كانوا يحمونها . لقد كان دخلها من المسرح ضئيلا للغاية ، وفضلا عن ذلك فقد كانت متكفلة بابنتها كلير ، ولهذا كانت مترددة فى أن تقلب حياتها رأسا على عقب

وكان هوجو قد جعلها تقيم فى مسكنها الجديد الجميل فى شارع دى ليشيكييه ، وكانت لاتزال تستقبل فى ذلك المسكن الامير ديميدوف صاحب الهدايا الفاخرة ، وكذلك كل أصدقائه ، ولذا كان هوجو كثيرا ماينعتها بأنها فتاة ضائعة

ان شخصا مثل بلزاك لو كان فى مكانه لابتسم ، أما هوجو فكان يعيش هنا احدى مآسى حياته الكبرى . وكانت جولييت تشعر أحيانا بالالم من جراء شكوكه حتى أنها تمنت لو تقطع علاقتها به وتولى هاربة ، ولكنها كانت تعود طالبة الصفح من هذا العشيق المدهش والقاضى الرهيب راجية اياه أن يحيى ماتبقى فى نفسها من فضيلة وطيبة

وكان هوجو على استعداد للصفح ، اذا وافقت جولييت على أن تقطع كل علاقة لها بماضيها . ووافقت جولييت أخيرا على ذلك ، فوجدت نفسها فجأة وقد غمرتها الديون . وفى يناير من عام ١٨٣٤ رهنت : « ٤٨ قميصا من الباتستا المشغولة ــ ٣٥ قميصا من الباتستا ــ ٢٥ فستانا ــ ٣١ جونلة مشغولة ــ ١٢ بلوزة مشغولة ــ ٢٣ برنصا وروب دى شامبر من الكاشمير المقلم ــ شال كشمير من الهند ، وأشياء كثيرة غير ذلك ... »

وأحاط الدائنون بجولييت من كل جانب ، وزادت زياراتهم لها من غيرة هوجو ، وحينما اضطرت فى النهاية لان تعترف له بجزء من قلقها ومتاعبها غضب هذا الرجل البرجوازى المحب للاقتصاد ، وأعلن فى بطولة رومانتيكية انه سوف يتكفل بهذه الديون عن آخرها ، وكتب اليها يقول :

« اننى أعطيك هذا المال .. لقد ربحته من اجلك منذ لحظات ، وكان يجب أن انتهى مما كان مطلوبا منى هذا الصباح . وفى بادىء الامر ، سقط القلم من يدى أكثر من عشرين مرة ، ولكننى اخذت اعمل من أجلك ..

اننى لست كسائر الرجال ، فأنا أترك للقدر نصيبه فى الحياة ، وحتى فى سقطتك لن أنظر اليك الا كمخلوقة نبيلة كريمة النفس أصابها القدر باحدى ضرباته . اننى لن أسمح لنفسى أبدا بأن أنضم للآخرين كى أوجه اللوم الى امراة مسكينة اضناها الالم ، ولست أنا بأية حال ذلك الشخص الذى يرميك بأول حجر ، واذا حدث ورماك أحد بهذا الحجر فسوف أحميك بجسدى وروحى ... »

ولما كان هوجو قد جعلها تقطع علاقتها بكل معارفها ، ولما كان هو نفسه لايستطيع أن يعيش معها ، فقد قرر أن يعطيها عملا فاتخذها سكرتيرة له ، وهى حركة طبيعية لدى الكتاب بالنسبة للمرأة التى يشعرون نحوها بالحب . وكان من واجبها أن تطلعه على كل حركاتها وسكناتها ، وهاهى ذى تكتب اليه قائلة :

« بعد أن عدت أمس الى البيت أخذت أطالع قصائدك ، ثم تناولت عشائى وقمت بعمل الحسابات وتمددت فى السرير .. وبعد أن قرأت صحفك فترة من الوقت ، غلبنى النعاس

واخذت الحلم بك ... هذا هو تقريرى عن الميدان ياقائدى العزيز ، فهل أنت راض مسرور ؟ »

وقبل أن يتركها ليعود الى بيته بميدان رويال ، كان هوجو يخط فى مفكرته : « ان ملاطفاتك لى تجعلنى أحب الحياة ، أما نظراتك فتساعدنى على أن أفهم السماء .. » — و « فى اليوم الاول من السنة سأكتب : أحبك ، أما فى اليوم الاخير فسأكتب : أعبدك . » أو « اسمحى لى أن اعرفك فى كلمة ياصديقتى المسكينة : انك ملاك فى جهنم ... »

والغريب أن ذلك العنف الذى كانت تتسم به مشاعر فيكتور هوجو وعواطفه ، كان يسر جولييت بقدر ما كان يضايق آديل ، خاصة وانه كان عنفا ينطوى على مرح صبيانى جميل

وكانت جولييت لاتزال تحتفظ ببعض الامل فى أن تصبح شيئا مذكورا فى عالم المسرح ، فأعطى لها هوجو دورا هاما فى مسرحيته الجديدة « مارى تيودور » التى كان التدريب جاريا فيها على مسرح « بورت سان مارتان » . وكان دور جولييت فى هذه المسرحية مساويا فى الاهمية لدور الممثلة الاولى فى هذا المسرح — وتدعى مدموازيل جورج — الامر الذى سبب لهذه الممثلة ضيقا بالغا ، فأخذت تشكو من تفاهة تمثيل جولييت ورداءته ، وتوغر عليها صدر هاريل مدير ذلك المسرح

ونجحت مدموازيل جورج فى أن تضم الى رأيها صوت سانت بوف والممثل الاول بيير بوكاج الذى راح يعامل جولييت بوقاحة أثناء البروفات ، وخاصة أنه كان صديقا حميما لاسكندر دوماس ، ولم يكن يتمنى أن تنجح مسرحية هوجو وبايعاز من سانت بوف وبوكاج وهاريل ، أخذت الصحافة

تهاجم مسرحية هوجو حتى قبل ليلة الافتتاح مندددة بأنها مسرحية مليئة بأبشع الجرائم ، وأن الجلاد يظهر فيها على خشبة المسرح . وفى تلك الليلة أخبر هاريل هوجو بأن جولييت غير كفء للقيام بالدور ، وأن الممثلة ايدا عشيقة دوماس تعرف الدور ومستعدة للقيام به ، ولكن هوجو لم يوافق على ذلك

وبدأ الحفل فى جو ينذر بالعاصفة .. ومر الفصل الاول والثانى بسلام ، وفى الفصل الثالث أخذ الجمهور يصفر لجولييت التى اضطربت بسبب عداء زملائها وعداء الجمهور ، تحققت للاسف كلام النقاد

وفى اليوم التالى ، وافق هوجو فى غضب وحزن تحت الحاح من آديل وسانت بوف على أن تتخلى جولييت عن دورها فى المسرحية بحجة انها مريضة ، وخاصة انها كانت قد اضطرت فعلا الى ملازمة الفراش

وكتب هوجو الى جولييت يقول :

« صدقينى ان أداءك كان عاطفيا ومؤثرا .. ان أولئك الذين يشكون يفعلون ذلك لانهم لم ينصتوا .. لقد كنت جميلة وساحرة فى البداية ، ولم تفقدى لحظة واحدة احساسك الدقيق بمختلف التعبيرات والفرق بين اللهجات ، وهذا أمر صعب يندر تحقيقه ، فكونى مطمئنة ياعزيزتى فالعدالة لابد أن تنصفك فى يوم من الايام ... »

غير أن استقبال الجمهور لجولييت نزع من نفسها البقية القليلة من موهبتها المسرحية ، فخرجت المسكينة من هذه التجربة القاسية وهى تردد قائلة بين حين وآخر :

« اننى لم أعد أجرؤ على الظهور على خشبة المسرح .. لقد نزعوا منى ثقتى فى نفسى . والان لن أقوى على التمثيل من جديد ، فقد أصبحت مشلولة تماما ... »

قرار قبولیت

فرار جولييت

كان عام ١٨٣٤ بالنسبة لهوجو وجولييت ، عاما مضطربا يجمع بين القمم النبيلة والهوات السحيقة المظلمة . وكانت الظاهرة الوحيدة التى تبدو مستقرة فى جو حياتهما المتقلب ، هى الحب المتبادل بينهما عاطفيا وجسديا . وكانت جولييت تعبر عن هذا الحب بطريقة مؤثرة ، فكتبت لهوجو فى ٢٦ فبراير من ذلك العام :

« عمت صباحا يا حبيبى العزيز .. عمت صباحا ياالهى وشاعرى الكبير ! أليس هذا اليوم الجميل الحافل بالحب والشمس جديرا بأن يذكرنا باليوم الذى ولدت فيه . انني أحبك يا عزيزى .. لقد جعلتنى سعيدة جدا فى هذه الليلة .. آه! لو كان يمكن للانسان أن يشترى سعادته بحياته لكنت أنفقت حياتى منذ زمن طويل .. »

وعلى الرغم من أننا قد نبتسم من اخطائها الهجائية ، الا أن اسلوبها كان لا يبعث على الابتسام بأية حال . وكانت جولييت لطيفة وهى تقلد فى بداية رسائلها شاعرها الرومانتيكى وهو يعبر عن كلمة : أحبك بألف طريقة مختلفة حاذقة ، وعرف هوجو موهبتها الشاعرية فاحتفظ برسائلها اليه باعزاز كبير

غير أن المرء لا يعيش بالحب والروح فحسب ، فقدكانت جولييت امرأة مسكينة ، أثقلتها الديون . لقد كانت مدينة بخمسة عشر الفا من الفرنكات للصائغ جانيسيه ، وألفين

وخمسمائة للسيدين ليبروتون وجيرار ـ وهما بائعان للاقمشة ـ وألفى فرنك لبائع القفازات ، وخمسمائة أخرى لفيلان بائع أحمر الشفاة ، وعلى ذلك يكون المجموع حوالى عشرين ألف من الفرنكات ، وهى ما يساوى الآن ستة ملايين فرنك !

وحاولت جولييت أن تتفاوض مع دائنيها ، وأن ترهن ثيابها ، وتقترض من احدى صديقاتها ، زوجة جاك لانفان ، وكانت هذه الالغاز والتحركات الخفية والاجراءات المريبة سببا فى اثارة غيرة وشكوك هوجو الذى كان يشبه « رؤساء محاكم التفتيش » ، وكانا على وشك ان ينفصلا عدة مرات خلال هذا العام ، وقد كتب هوجو فى مذكراته فى الثالث عشر من يناير ١٨٣٤ يقول :

« اليوم عشيق جديد .. وغدا .. »

والواقع أن جولييت التى تردت فى هاوية البؤس بمحض ارادتها ، وضحت بكل شىء لكى تحتفظ بهذا العشيق ، لابد وأنها صدمت من قسوته ، فكتبت اليه تقول :

« اننى مهما فعلت ، فلا شىء يرحمنى أمام عينيك .. انك لا زلت ترانى اليوم كما كنت منذ عام بالنسبة لكل الناس : امرأة يمكن أن تلقى نفسها بدافع من الحاجة بين ذراعى أول رجل ثرى يرغب فى شرائها ، ولاشك فى أن هذه أسباب مؤلمة وقاسية لانفصالنا ، ولكننى لم أعد أقوى على الاحتمال .. »

وكان لدى جولييت أسباب أخرى تبعث على الالم ،فقد كان هوجو يحيا حياة لامعة بعيدا عنها فى شقته بميدان رويال ، وكان يحدث أحيانا أن تتعب من انتظاره فتذهب

لتهيم تحت نوافذ بيته ، وتظل تنظر الى الاضواء وتسمع الضحكات المنبعثة من خلال النوافذ حتى ساعة متأخرة من الليل

ومن ناحية أخرى ، كان هوجو يتقبل فى سهولة الوشايات التى تقولها له الآنسة جورج عن ماضى جولييت ، وكثيرا ما كانت هذه الآنسة تسأله فى الحاح خبيث عما دفعه الى اختيار « هذه المرأة المغرورة عديمة النظام » من دون سائر النساء

وأخيرا ، كان هناك قلة اهتمامه بأمرها كممثلة ، ولكن هوجو استطاع ان يجد لها عملا بمسرح « التياتر فرانسيه » بأجر قدره ثلاثة آلاف من الفرنكات فى العام ، فمكنها ذلك من أن تسدد ايجار مسكنها بشارع ليشيكييه ، خاصة وأن ديميدوف لم يعد يدفع لها هذا الايجار بالطبع بعد أن قطعت علاقتها به

وفى المسرح ، كانوا لا يسندون اليها أى دور ، وكانت تعتقد فى بعض الاحيان أن تقدير عشيقها لها كممثلة لايزيد كثيرا عن تقدير الجمهور فى مسرحية مارى تيودور ، فأى مستقبل أمامها اذن ؟ .. أن تبقى فتاة مسكينة لا مستقبل لها ولا أسرة ، وعشيقة لرجل غيور يحتقرها ؟ وحينماطردها الدائنون ورأت أثاث شقتها يوقع عليه بالحجز ، فكرت جديا فى أن تقتل نفسها ، وكتبت الى هوجو قائلة :

« يا فيكتور .. لقد أضنيت نفسى هذه الليلة بوشايات الآنسة جورج الدنيئة ومصائب حياتى الماضية . لقد سخرت من الخمسة عشر شهرا التى قضيتها معك فى الحب والالم .. اننى أريد منك الا تبعد عن نفسك فكرة أنى أكن

لك حبا نقيا عنيفا .. لا تفعل مثل هؤلاء الصبية الذين يرون فى الطريق شيخا يمر ، فيظنون انه لم يكن فى يوم من الايام شابا قويا .. لقد احببتك بكل مافى روحى من قوة ، ومعى هنا كل خطاباتك وكذلك المنديل الذى أعدته الى وهو ليس بمنديلى .. »

وفى مرة أخرى كتبت اليه تقول :

« لم يعد الامر اليوم متعلقا بتمثيل دور فى احدى المسرحيات ، وانما يتعلق بحياتى كلها . والآن وقد حطمتنى الوشايات ، وحكم على دون ان يسمع دفاعى كما حدث فى مسرحيتك .. والآن وقد انهكت صحتى وعقلى فى معركة عديمة الفائدة لا جدوى منها ، واصبح يشار الى أمام الناس كامرأة بلا مستقبل ، لم أعد استطيع ولا اجرؤ على العيش، وقد ولد هذا الخوف فى نفسى الحاجة الى الانتحار .. »

ولكن ، بما أن جسد هوجو وقلبه كانا أكثر حكمة من كبريائه ، كان يعود اليها نادما ، وأحيانا يجدها نائمة ويكتب اليها قائلا :

« ستجدين هذا الخطاب الصغير الى جوارك حينما تستيقظين ، وحينئذ سوف تبتسمين لى .. أليس كذلك ؟ اننى أريد أن تبتسم عيناك الجميلتان اللتان أضناهما البكاء، فنامى يا حبيبتى واحلمى باننى احبك واننى تحت قدميك ، واننى لا أستطيع العيش بدونك ، وحينما تستيقظين ، ستجدين ان الحلم هو الحقيقة . وأخيرا دعينى أقبل قدميك الصغيرتين وعينيك الواسعتين .. »

وكان هوجو يصطحب جولييت أحيانا الى ضواحى باريس ليريها وادى نهر لابييفر ، ذلك الوادى الذى كان

يحبه . وفى الثالث من يوليو قضيا الليلة فى فندق آليكو دى فرانس بقرية جوى آن جوزاس ، وكتبت اليه جولييت :

« حبيبى فيكتــور .. اننى لا زلت فى أشـــد حــالات الانفعال منذ سهرة الامس الثالث من يوليو فى العــاشرة والنصف مســاء . لقد كنت أسـعد نسـاء العالم وأشدهن فجرا . ان هذا الخطاب وثيقة تكشف حالة قلبى ، وثيقة أكتبها اليوم لتنفعنى فى بقية حياتى ، ففى وسعى أن أعيد بها قلبى ــ فى الدقيقة التى تحلو لى ــ الى نفس الحالة التى هو عليها اليوم ، يملؤه حب واحد هو حبك وفكرة واحدة هى أنت ..

جولييت

باريس فى الرابع من يوليو عام ١٨٣٤
ــ السـاعة الثـالثة بعد الظهــر

وبعد عودة هوجو وجولييت الى بلدة روش أثناءالصيف، اخذا يبحثان عن غرفة لا تبعد كثيرا عن قصر برتان ، وأخيرا وجدا غرفة على قمة تل تكسوه الاشجار فى قرية ميتز الصغيرة ، مقابل أثنين وتسعين فرنكا فى العام دفعها هوجو مقدما ، وكانت فى منزل ريفى أبيض اللون له نوافذ خضراء تغطيها شجرة كرم ، وتسكن فيه أسرة تدعى أسرة لابوسيير، ثم عادا بعد ذلك الى باريس

وفى التاســع من يوليو من ذلك العــام ، كتب هوجو الى جولييت يقول :

« يا غرامى وملاكى .. لا شىء يسكرنى كالغناء الذى يخرج من فمك ، والقبلة التى أطبعها على شفتيك . ولاتنسى أبدا أن هذه السطور قد كتبت فى فراشك وأنت تغنين لى

اشعارا من تأليفى بصوت يسحر روحى .. كم كنت تجعلين هذه الاشعار الهزيلة أغنيات رائعة .. لقد صنعت انا أبياتها اما أنت فقد صنعت شاعريتها .. »

وفى التاسع عشر من يوليو ، غادرت جولييت شارع دى ليشيكييه وقد احتفظت فى نفسها بذكرى خالدة لهذه الغرفة التى قضت فيها فترة سعيدة للغاية وشقية للغاية، واقامت فى مسكن صغير جدا بشارع بارادى .. ولكن سرعان ما اصبحت حياتها جحيما فى ذلك المسكن ، ذلك أن الدائنين الذين عرفوا عنوانها راحوا يطاردونها فى قسوة بالغة حتى اضطرت آخر الامر الى الاعتراف لعشيقها بمجموع ديونها ، وكانت تبلغ عشرين الفا من الفرنكات !

والواقع أن ابن الجنرال هوجو الذى عاش فترة طويلة على بضع فرنكات فى اليوم ثار على جولييت ثورة مخيفة ، وانتهى به الامر بأن قال لها انه سوف يقوم بسداد كل هذا المبلغ تدريجيا ، ولو على حساب صحته وحياته ، وان كان هذا الوعد قد امتزج بأقسى الوان العتاب ، ولكن جولييت كتبت اليه تقول :

« آه ! انك لن تستطيع أبدا ان تحبنى حبا نقيا عميقا طويل الامد كما أحبك ، ومع كل ذلك فاننى شقية بائسة، فأى نوع من التكفير تطلبه منى بسبب جريمة ليست من صنعى وجاءت من حيث لا أدرى .. جريمة لم يتواطأ فيها جسمى ولا قلبى ! تكلم .. قل شيئا ، فاننى على استعداد لان أخضع لاى نوع من أنواع العقاب حتى لا يموت حبنا .. »

وأخيرا ، وتحت وطأة تلك المشاكل جميعا ، هربت جولييت

مع ابنتها الصغيرة الى اقليم بريتانى حيث تعيش شقيقتها رينيه فى بلدة سان رونان

وقاسى كل من هوجو وجولييت الأمرين من هذا الفراق، اذ فيما كان يهم المال أمام كل هذا الحب ؟

وأخذ هوجو يناضـــل بكل جوارحه فى سبيل انقـــاذ جولييت ، وذهب به الامر الى حد الاستنجاد بالمثال جيمس براديه ، وذلك لكى يتكفل على الاقل بنفقات أبنته كلير ، غير أن براديه ساوم هوجو فى قحة على انه لن يتسنى له أن يتكفل بابنته الا اذا حصل له هوجو على خطاب بتكليفه بعمل بعض التماثيل لقوس النصر !

أما جولييت ، فقد كانت تكتب لهوجو قائلة :

« فيكتور ! اننى أكاد أموت بعيدا عنك .. هل صحيح انك تكرهنى وتحتقرنى ؟ اننى على استعداد لان أفعل أى شيء تطلبه منى .. يا الهى ! قل فقط انك لا تزال تريدنى؟»

وكان هوجو يريدها ، وكان مستعدا لان يعاونها ، فكتب اليها قائلا :

« لقد رأيت براديه منذ قليل ، وتحت ضغط شـــديد منى وافق على أن نفعل كل شيء لانقاذك .. انه سوف يتعهد مثلى اذا لزم الامر ، ولكن من أجل تحقيق ذلك لابد أن تكونى موجودة فى باريس لتساعدى على ايضاح الامر . ومن ناحيتى جمعت حتى الان مبلغ ألف فرنك بمجهـــود خارق ، فها أنتذى ترين ما يمكن ان يفعله الحب ..

اننى سأذهب فى الحال لاحجز لنفسى مكانا للسفر ، فاذا نجحت فى ذلك سافرت يوم الثلاثاء ويمكنـــــك رؤيتى يوم الجمعة .. اننى لم أتناول طعـــاما منذ ثلاثين ســـاعة ، اننى

أحبكَ يا عزيزتى .. »

وترك هوجو زوجته وأولادها فى بلدة روش ، وسافر الى اقليم بريتانى . وتلاقى العاشقان فى ميناء بريست حيث السماء والبحر الازرق يشيعان فى الجو جمالا وبهجة بعد أيام الضباب . واقسم كل منهما على الا يحاول أحدهما أن يلحق الاذى بزميله

وكان هوجو وهو يتبع عشيقته يحاول أن يهدىء أعصاب زوجته ، فكتب اليها فى السابع من اغسطس من مدينة رين يقول :

« وداعا يا عزيزتى آديل .. اننى أحبك ، فالى اللقاء فى القريب العاجل ، واكتبى الى كثيرا . انك مبعث سرورى ، وشرف حياتى ، فدعينى أقبل جبينك الحلو ، وعينيك الجميلتين .. »

وكانت آديل تخرج للنزهة بحرية أثناء ذلك مع سانت بوف تحت خمائل وادى بييفر ، فكانت ترد عليه قائلة :

« اننى لا أريد أن أكتب لك شيئا يمكن أن يسبب لك الحزن ، بما أنى لا أستطيع أن أكون الى جوارك لأواسيك .. ومن ناحية أخرى أعتقد انك تحبنى بعد كل ذلك وأنك تتسلى لانك قد تأخرت فى العودة »

وفى الثامن من سبتمبر ، استقرت جولييت فى قرية ميتز بغرفتها الصغيرة فوق التل ، وأقام فيكتور فى قصر دى روش ، وبدأ الأثنان ستة أسابيع من حياة بسيطة لا مثيل لها ..

وكانت جولييت تقوم بترتيب غرفتها هذه بنفسها ، وتأكل فى المطبخ ، ولم يكن عندها سوى ثوب من الصوف وثوب آخر من قماش أبيض مخطط

والواقع أن هذا الفقر الذى كانت تعيش فيه جولييت ، كان خير دليل على حبها وطاعتها .. ومن ناحية أخرى فقد كانت هذه الحياة الخشنة وتلك العزلة التى فرضها عليها هوجو يشبعان فى نفسه شهية عجيبة للسيطرة ، وأهدى هوجو نسخة من كتابه « كلودجوه » الى جولييت كتب عليها الاهداء التالى :

« الى ملاكى التى ينمو ريش أجنحتها من جديد — ميتز فى ٢ سبتمبر عام ١٨٣٤ »

وكان هوجو يأتى كل يوم مخترقا الغابة سيرا على الاقدام، وكانت جولييت كثيرا ما تذهب لانتظاره فى الغابة الى جوار شجرة عتيقة من أشجار الكستناء ، وكانت بصدرها النافر ووجنتيها المتوردتين وجمالها الساحر تبدو كوردة رائعة نابتة فى قلب الغابة . وكانت بمجرد أن ترى حبيبها تجرى نحوه فى خفة ورشاقة لتلقى نفسها بين ذراعيه ، وبعد أن تطبع على شفتيه قبلة حارة تسير فى رفقته تحت الاشجار الضخمة التى يغلف قممها الضباب الكثيف

لقد كانا سعيدين .. وكان هوجو ، ذلك الكاتب الذى يحلو له دائما أن يشرح العالم ويتحدث عن الله وكل الكائنات، يجد فى هذه الحسناء التائبة تلميذة هادئة مملوءة بالاعجاب . وذات مرة فى احدى هذه الجولات ، هبت عليهما عاصفة شديدة فاحتميا باحدى اشجار الكستناء العتيقة ، وكانت جولييت ترتعد من البرد بينما راح هوجو يبذل جهده لكى يدفئها ، وأخذت قطرات كبيرة من المطر تتساقط من شعره على رقبتها الطويلة ، فكان ذلك بالنسبة لجولييت ذكرى ثمينة لم تنمح من ذاكرتها أبدا ..

ولما كانت جوليت من النســاء اللاتى يعترفن فى قرارتهن بجميل الرجل الذى يمدح نبل روحهن لا جمالهن فحسب ، ولما كان الناس قد حكموا عليها بقســوة بالغة ، وكانت هى نفسها غير راضية عن ماضيها ، لذلك كانت تحب أن ينقلب العاشق الى واعظ يحدثها عن الأمل فى الله ، وتحب أن تسمع الشاعر يقول لها :

« ان أخطاءنا قد سببت لنا آلاما كثيرة يا ملاكى المسكينة، وحينما يكون الرب قد بارك جميع الابرياء ، ثم كل التائبين، فربما يباركنا نحن كذلك فى النهاية .. »

وكم كانت ســعادتها حينما وضع لها فى فجوة خطاباتهما بشجرة الكستناء العتيقة قصيدة تحمل هذا الاهداء :

« اليك يا من أحب وأحترم ــ ف. هـ. »

وكان عنوان هذه القصيدة : « فى كنيسة » ، كتبها هوجو ذات مساء بعد زيارتهما لكنيسة صغيرة فى بلدة بييفر أثناء احدى جولاتهما الطويلة ، يقول فيها :

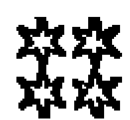
« كانت كنيسة متواضعة وعقود سقفها منخفضة »
« تلك الكنيسة التى دخلناها .. »
« كانت حزينة وهادئة مع احتضار النهار .. »
« تلك الكنيسة التى دخلناها .. »
« وكان المذبح بلا خادم كقلب بلا حب .. »
« وكانت الأنوار مطفأة .. »

هناك ، لا شك فى أن جوليت قد صلت ، وهناك ، شكت الى ربها الذى كانت تعتقد فيه بكل روحها ، شكت اليه يأسها كامرأة تتلفت حولها فلا تجد أثرا « للبيت المرح ولا للاسرة الحلوة » ، ولم تكن مع ذلك قد أساءت الى أحد أو فعلت

مكروها لهذا العالم الفولاذى ! وهناك أيضا ، فى تلك الكنيسة الصغيرة المتواضعة ، عزاها صديقها الاديب الشاعر ، وطمأنها وهدأ نفسها وقد رآها يومئذ جادة حلوة وجديرة بالمكان المقدس

والواقع أن هذه القصيدة ببساطة مشاعرها ، وبلهجتها الأليفة الهادئة ، وبحركات أبياتها العذبة ، وبذلك الانسجام التام الذى نلمسه فيها بين الفكرة والقافية كما قرأناها فى النص الفرنسى ، قد جاءت من أجمل القصائد التى كتبها فيكتور هوجو

ولكن أنين جولييت الذى عبر عنه الشاعر فى انسجام ونغم تامين ، كان دليلا على أنها فى علاقتها بفيكتور هوجو كانت تفتقد السعادة على الرغم من كل هذا الحب المتبادل الذى كان مشبوبا بينهما !




جولييت

شاعر.. وعشيقة.. وزوجة

شاعر .. وعشيقة .. وزوجة

وبدأت بالنسبة لجولييت فترة رائعة من التقشف والحرمان ، أقرب ما تكون الى حياة الاديرة . لقد وعدها فيكتور هوجو بأن يغفر لها ماضيها ، ولكنه وضع لذلك شروطا بالغة القسوة ، فكان على جولييت ــ التى كانت حتى الأمس القريب أكثر النساء اثارة للاعجاب فى باريس بما ترتديه من ثياب موشاة بالدانتيلا والاحجار الكريمة ــ كان عليها ألا تعيش الا من أجله والا تخرج الا معه ، وأن تتخلى عن كل ترف ودلال . وقبلت جولييت أن تحيا هذه الحياة الخشنة بدافع من النشوة الدينية ، وحبها لتطهير نفسها عن طريق الحب . وكان سيدها وعشيقها يعطى لها ثمانمائة فرنك فى الشهر على دفعات صغيرة ، وكانت تسجل له مصروفها بكل دقة :

التاريخ		صلدى	فرنك
١	نقود ربحها معبودى	ـ	٤٠٠
٤	نقود ربحها معبودى	ـ	٥٣
٦	نقود الطعام الخاص بحبيبى توتو	ـ	٥٠
١٠	نقود ربحها رجلى الصغير	ـ	١٠٠
١١	نقود الطعام الخاص بحبيبى	ـ	٥٥
١٢	نقود ربحها حبيبى	ـ	٥٠
١٤	نقود أخذتها من حافظة توتو صغيرى	ـ	٦
٢٤	نقود أخذتها من حافظة توتو حبيبى	٤	١١
٣٠	نقود أخذتها من حافظة معبودى	ـ	٣١

وكان على جولييت أن تدخر من هـذه النقـود القليلة ، المبالغ التى تدين بها للدائنين ، وايجار مسكنها .. وفضلا عن ذلك نفقات تعليم ابنتها كلير فى المدرسـة الداخلية ، فلم يكن يتبقى لها بعد ذلك الا أقل القليل

وفى معظم الاحيـان لم يكن عنـد جولييت فى غرفتها نار للتدفئة ، فاذا اشتد عليها البرد كانت تظل راقدة فى سريرها تحلم وتقرأ أو تسوى الحسابات التى كان سيدها يطالبها بها ليراجعها بنفسه كل ليلة

ولم تكن جولييت تأكل الا الجبن والبيض واللبن ، وكانت تأكل تفاحة واحدة فى كل ليلة ، ولما لم تكن لديها ثياب جديدة ، كانت تقوم برتق القديم منها لاحيائها من جديد ، وكان الكاتب الشهير يردد على مسامعها كل ليلة أن « الملبس الفاخر لايزيد من سحر النفوس الجميلة » ، وكان يطلب منها أحيانا ايضاحا بخصـوص علبـة من مسحوق الاسنان ، أو مريلة جـديدة صنعتها من شال قديم

والغريب أن جولييت قبلت هذه الحياة الاسيرة ، بل انها تقبلتها فى مرح ممـزوج بعرفان للجميل ، وكتبت اليه ذات مرة تقول :

« لم أعرف قط فى حياتى ماهو أكثر بشاعة من الاستدانة ! يا الهى ! ان الاستدانة شىء كريه يحقر المرء ويذل كرامته ، وكم أنت عظيم ونبيـــل لانك تحبنى على الرغم من ماضى يا معبودى العزيز ! »

وكانت جولييت فى أوقات فراغها ، تبيض مســودات حبيبها ، أو ترتق له بعض ثيابه ، فتجد فى ذلك متعة كبيرة .. وكانت الناحية المؤلمة فى حياتها أنها كانت تضطر أحيانا الى

انتظار عدة أيام وهى تنظر الى السماء وكأنها عصفور حبيس فى قفص ، اذ أنه كان لا يأذن لها بالخروج الا معه

وكان هوجو يصحبها معه فى أوقات فراغه الى سان مانديه لزيارة ابنتها كلير بالمدرسة الداخلية ، أو الى حى الانفاليد حيث يقيم عمها درروويه الذى كان يعانى وقتئذ سكرات الموت ، أو الى متجر لبيع التحف القديمة .

وكان الشاعر يحب الصغيرة كلير ، وكثيرا ما كان يكتب اليها قائلا :

« عزيزتى كلير .. بما أنك تفكرين قليـلا فى صديقك القديم ، فهو يحب أن يوجه اليك هنا تحية صغيرة ، ويرجو منك أن تعملى بجـد وأن تكونى عاقلة وكبيرة ، وذلك كى تصبحى شخصية نبيلة جديرة بوالدتك .. »

وكانت هذه العزلة التى تعيش فيها جوليت تتحـول الى سجن أليم ، اذا تأخر الشاعر فى الحضور أكثر مما ينبغى ، فكانت تشكو حينئذ قائلة :

.. « لقد كنت غبية اذ تركت نفسى أقاد كالكلب الى الحظيرة .. ان نصيبى هو الطعام « والعشة » والسلسلة . ومع ذلك ، فهناك كلاب يأخذها المرء معه وهو خارج من البيت ، ولكننى محرومة حتى من هذه السعادة ! »

وكان لا يزال هناك أمل وحيد أخير يراود نفسها حتى بعد كل هذه الصدمات وهو المسرح ! وكان هوجو قد انتهى من كتابة مسرحية نثرية جديدة هى : « أنجلو طاغية بادوا » ، وهى مأساة هزلية على غرار مسرحية لوكريس بورجيا ، وكانت على الرغم من قيمة موضوعها ، متينة التأليف .. فقبلها مسرح الكوميدى فرانسيز فى حماس

وكانت جولييت تأمل فى أن يعطيها هوجو دورا هاما فى هذه المسرحية ، ولكنها لم تجرؤ على مصارحته بذلك مقدرة انه ربما خشى أن يعهد بمسرحيته الى ممثلة كانت مواهبها موضع جدل ، على الرغم من أن النقاد كانوا يتقربون اليها، ولكن الذى حدث ان جولييت تخلت عن رغبتها فى نبل وكرم وقالت له :

« لنفصل بين مصيرى ومصيرك فى المسرح » . وكان ذلك معناه انها تخلت عن مستقبلها الفنى ، فتركت «التياتر فرانسيه » دون أن يتاح لها أن تمثل فيه دورا واحدا . وأسند الدوران الاساسيان فى المسرحية الى « مدموازيل مارس » و «مدام دورفال » ، فكان ذلك بالنسبة لجولييت أقصى درجة من الاذلال .. لا كممثلة فحسب ، بل كحبيبة كذلك

وكان سحر مدام دورفال وميوعتها المثيرة التى اشتهرت بها يثيران الخوف فى نفس جولييت . وكانت مدام دورفال حينئذ عشيقة للشاعر النبيل الفريد فينى ، ولم تكن تخلص له ، فليس من المستبعد اذن أن تحاول اغراء شاب وسيم كفيكتور هوجو . وصارحت جولييت هوجو بمخاوفها، فكتبت اليه تقول :

« اننى غيورة ، فأنا امرأة من لحم ودم ، امرأة شهوانية كأشد ما تكون المرأة ، وهى معك هناك كل يوم تنظر اليك وتحدثك وتلمسك .. آه ! اننى أغار حقا من هذه المرأة ! وهذه الغيرة تجعلنى أقاسى آلاما شنيعة .. »

وكان التصفيق والحماس المنقطع النظير الذى استقبل به الجمهور مسرحية طاغية بادوا ، بفضل أداء الممثلتين

المحبوبتين من الجمهور ، عذابا اليما بالنسبة لجولييت .
ولكنها تغلبت على نفسها بفضل اخلاصها لحبيبها ، وكتبت اليه تقول :

« آه لو انك علمت بأى اخلاص صفقت لمدام دورفال ، لما قلت فى هذا المساء شيئا يجرح قلبى المسكين ، الذى صدمه ان ترضى بامرأة غيرى لتمثل أنبل افكارك ! ولكن هأنذى على الرغم منى أصبح حزينة مضطربة لانك الى جوار هذه المرأة .. »

وأحس الشاعر بمبلغ ألم جولييت ففكر فى أن يعوضها عن ذلك ، فقام برحلة معها فى الصيف التالى . وعلى الرغم من أن مصاريف هوجو كانت كثيرة ، الا أن مؤلفاته كانت تدر عليه مالا كثيرا

وفى نهاية شهر يوليو ، أرادت آديل أن تسافر الى مقاطعة أنجو لحضور حفل زواج فيكتور بافى صديق الاسرة .. وكان هوجو مدعوا للحضور ، ولكنه كان يعلم أن سانت بوف سيكون بدوره هناك ففضل ألا يذهب . ومن ناحية أخرى كان هوجو يرغب فى أن يسافر مع جولييت ، فأخبر زوجته بأن تذهب الى حفل الزواج فى صحبة والدها . وافترق هوجو وزوجته كأخوين أكثر منهما زوجين ، ولم يكفا عن تبادل الرسائل الودية

وعلى الرغم من أشعة الشمس الساطعة على شواطىء نهر اللوار ، ورغم وجود صديقها ذو الشعر الاحمر ـ سانت بوف ـ الى جوارها ، الا أن ذلك لم يكن يفريها تماما عن غياب زوجها ، فكتبت آديل تقول له :

« حين رأيت نهر اللوار تذكرت اننى رأيته معك منذ

عشرة أعوام مضت ، فمتى نسافر معا من جديد ..؟ اننى أشعر بأن ذوقى شاخ واننى حزينة جدا بلا سبب .. »

وكانت آديل تشعر حينئذ بأنها ملت سانت بوف وملت الحياة ، وكل شيء .. كيف لا والغيرة توقظ فى النفس شعورا شبيها بالحب ؟ اما ابنته ديدين التى كانت حينئذ فى الحادية عشرة من عمرها ، فكانت تكتب الى والدها تقول :

« ان والدتى تبكى حين تفكر فى انها ليست معك .. لا تنس ابنتك الصغيرة ، ودع هذه التماثيل المنحوتة لتعود الينا يا والدى العزيز ، فنحن نحبك كثيرا .. »

وفى نفس الوقت ، كان هوجو وجولييت يستمتعان الى أقصى حد بجمال رحلتهما . كتبت جولييت اليه تقول :

« هل تذكر رحيلنا فى عربة المسافرين التى تجرها الجياد ، ويد كل منا فى يد الآخر ؟ اتذكر حين كنا نزور المتاحف والكاتدرائيات ونبدى اعجابنا بكل شيء ؟ كم من التحف أثارت حماسى لانك كنت تحبها وتشرح لى سر عظمتها بنفسك .. ! وكم من الدرجات صعدتها الى مالا نهاية لانك كنت تصعدها أمامى .. ! »

وكانت هذه الاسفار بالنسبة لجولييت تخلق جوا شبيها بجو الاستعداد للزواج .. أما بالنسبة لهوجو ، فكانت بمثابة النزوة والتجديد والعودة الى الحرية : حرية الصبا وانطلاق الطفولة

وكان الشاعر يحب أن يسافر بلا برنامج معد ولا أمتعة تثقل كاهله ، وكان يطيب له أن يشاهد الاطلال والآثار ويجمع الازهار ويرسم المناظر ، وكانت جولييت التى ترضى

بكل شيء هي الرفيقة المثالية في هـذا الانطلاق • ولم يكن هوجو وهو بعيد عن باريس يلعب معها دور قاضي محاكم التفتيش ، بل كان يغمره المرح وكأنه تلميذ صغير اجتـاز امتحانه ويلعب في عطلة الصيف !

وأقامت جولييت بعد عودتها في قرية ميتز ، اما آديل فأقامت في بيتها ببلدة روش ..

وكان شهرا سبتمبر واكتوبر من عام ١٨٣٥ شـهرين مطيرين ، فكـانت جولييت في معظـم الاحيـان تلزم غرفتها الصغيرة أكثر الوقت ، وتنظر الى العاصفة وقـد استبد بها القلق على ابنتها الصغيرة التي كثيرا ما كانت تقول عنها انها « تنساها أكثر مما يجب » ، أو تعيد قراءة كتاب من مؤلفات « عزيزها الرجـل الصغير » . وكانت لا تتعب من ذلك ، بل لقد كانت تجد في ذلك متعة فائقة : « حسنا ! انني أعرف كل كلمة من مؤلفاتك .. وفي كل مره أعيد قراءتها أشعر بالمتعـة والسرور أكثر من ذي قبـل ، فهي تشبه وجهك الجميل الذي على الرغم من أنني أعرف كل شعرة فيـه ، الا أن ذلك لا يحـول دون أن أظل مبهـورة كلما أمعنت النظر اليه .. »

وكثيرا ما كانت جولييت تخرج على الرغم من سـيل المطر المنهمر لتذهب الى شجرة الكستناء لانتظار حبيبها ، ولكنها كانت في أغلب الاحيان لا تجد حبيبا ولا خطابا ، فكان ذلك يسبب لها صدمة كبيرة •• ولكن سرعان ما كان الشاعر يرسل اليها قصيدة أو خطابا من خطاباته الرائعة ، فيعزيها ذلك عن كل شيء ..

وكان اعجاب جولييت بشـاعرها اعجابا يقارب حد

العبادة .. كان يشجعه على أن يتأله ، وكان يعوده من ناحية أخرى على أن يتأمل نفسه ، خاصة وانه كان يمر حينئذ باحدى فترات حياته الأليمة ، فقد كان يعرف انه مكروه من الناس ، وأنهم يتربصون به محاولين الوشاية به . ألم يكتب هاينى يقول : « وبالنسبة لشاعرنا ؛ كانت كل هذه المشاعر الممتزجة والعواطف المتباينة تفعل فعل السحر فى تشكيله كشاعر ، فجاء ديوان شعره « أغانى الغسق » الذى نشر فى أواخر أكتوبر عام ١٨٣٥ مجموعة من التحف الادبية النادرة

لقد كان هوجو مؤلف « ديوان أغانى الغسق » يفوق بكثير هوجو مؤلف ديوان «الاغانى» ، وحتى ديوان « أوراق الخريف » والواقع أن ديوان أغاني الغسق الذى نشره الناشر راندويل فى أواخر أكتوبر جاء مجموعة من التحف والروائع ، فالعنوان يشع منه ضوء عذب جميل ، ونرى فيه ـ بعد شهب وصواريخ أشعار « ديوان الشرقيات» ـ وئاما عجيبا وانسجاما تاما بين بساطة اللفظ والامتياز فى رصف الابيات ، وكانت الابيات المألوفة تسمو فيه الى حد الملحمة وقد تغنى الشاعر فيه بعرسه العقلى والجسدى مع جولييت دروويه ، فجاءت به ثلاثعشرة قصيدة مهداه اليها بطريقة واضحة أو مستترة، وليس هناك شك فى أن الجياع الى الفضيحة ممن قرأوا هذا الديوان ـ واتخذوا من مؤلفه موقف القضاة الصارمين اكثر من الاصدقاء المجاملين ..قد أصابتهم دهشة بالغة حين وجدوا فيه أيضا قصائد غاية فى الروعة أوحت بها الزوجة والاولاد الاعزاء ، فقرأوا فى قصيدة تاريخ « ليليا » تمجيدا لفضائل آديل ، ومحاولة لتكذيب الشائعات التى كانت تروج وقتئذ عن وجود خلاف بين

الشـــاعر وزوجته ، واعترافاته بالماضي الهادىء الوادع ، وتقربا ينطوى على الود فى الحاضر .. يقول فيها الشاعر :

« آه لو لاقيتم فى موضـــع ما تحت السمـاوات »
« امرأة ذات جبين نقى وخطوة جادة وعينين حلوتين»
« يتبعها أولاد أربعة يترنح صغيرهم فى مشيتـــه »
«فاذا مر الى جوارها حين ترقبوهم جميعا جيدا بأعينكم»
« أعمى يضنيــــه العمر وتثقل كاهله الاعـــوام »
« فانها تضع احسـانا متواضعا فى يد طفلها الصغير »
« آه ! فليباركهـــا كل واحد منكم ... انها هى »
« أخت روحى الخـــالدة التى تراها العيـــون »
« هى كبـــريائى وأملى ومـــلاذى ومأواى ! »
«وهى سقف أعوام شبابى التى تأمل فيها أيامشيخوختى

وإثارت هذه القصيدة ، التى كانت تتوج الكتاب كما لو كانت تقدسه ، الناقد سانت بوف حتى أنه لم يستطع أن يكبت غضبه ، فجاءت مقالته عن ديوان أغانى الغسق متجنية غير عادلة فى كل فقراتها ، وانتهت بهجوم قاس على هـــذا « الشاعر العائلى » ..

وقد تأثرت آديل الى أبعد حد من نقد ســانت بوف لديوان زوجها ، وغضبت كثيرا من تعليقه المفضوح . ذلك انها وان صدمتها القصائد والاناشـــيد التي كانت تتغنى بجولييت ! فقد تأثرت تأثرا بالغا بأبيات مثل :

« أنت .. فلتكونى مبـاركة على الدوام »
« يا حواء التى لا تغريها أية فاكهـــــة ! »
« وأنت راضـــــية مسرورة بالفضيلة »
« وتســـكنى فى القمم النقيـــــة ... »

« حواء التى لا تغريها أية فاكهة » ! .. ان زوجها يعطيها هنا دورا كانت لا تكرهه ، وهاهو ذا حب فيكتور هوجو الجديد يوحى الى زوجته برغبته فى التقرب منها تقربا عاطفيا لاحسيا .. لا بأس اذن ، فهى لم تشعر معه يوما بأنها كانت محبة حقا ، وكانت تقبل عن طيب خاطر الا تكون بالنسبة اليه منذ الآن سوى رفيقة شرف ، فكتبت اليه تقول :

« لا تحرم نفسك من شىء ، فلست فى حاجة الى اللذات ولكن يلزمنى الهدوء • آننى عجوز للغاية •• وليست لى آلا رغبة واحدة : وهى أن يكون كل من أحبهم سعداء . ان السعادة فى هذه الحياة قد انقضت بالنسبة الى واننىابحث عنها فى ارضاء الآخرين ، وهو أمر أجد فيه حلاوة على الرغم من كل شىء . ولهذا فأنت على حق تماما حين تقول لى أن لدى ابتسامة متسامحة . يا الهى ! ان فى وسعك ان تفعل كل شىء فى العالم ، وما دمت سعيدا فاننى سعيدة .. لا تحسب أن هذا قلة اكتراث ، فهو اخلاص وعدم تعلق بالحياة .. ولن استغل تلك الحقوق التى يخولها لى الزواج عليك ، ففى نيتى أن أتركك حرا كأنك شاب أعزب يا صديقى المسكين .. أنت الذى تزوجت وأنت فى العشرين من عمرك .. »

وبعد ظهور ديوان « أغانى الغسق » أبعدت آديل صديقها الناقد سانت بوف من حياتها رويدا رويدا ، اذ كانت تلومه لا على مقاله غير اللائق فحسب ، وانما على ما كان يتشدق به فى كل مكان من أن هذا الديوان « ينافى الاخلاق »

وفكر هوجو في أن يتحدى صديقه القديم للمبارزة ،

واضطر الناشر راندويل الى التدخل فى الامر لحسم الخلاف، فقال لهوجو : « هل يليق ان يبارز أحدكما الآخر وأنتما شاعران ؟ »

وكتب سانت بوف الى « فيكتور بافى » يقول :

« ان كل واحد منا غاضب جدا من الآخر ، واعتقد آسفا أن هذا الخلاف سوف يدوم ، ولست أدرى أن هناك صلحا ممكنا ، فبيننا كثير من المقالات ، وهى مقالات لا يمكن التراجع عنها أو الغاؤها او انكارها .. »

ومما يدعو الى الدهشة أن جولييت التى مجدها الشاعر فى ديوانه هذا كل التمجيد قد اظهرت من الغيرة أكثر مما أظهرت آديل ، اذ استولى عليها القلق حين رأت النقاد يرون أن القطعة الاخيرة « تاريخ ليليا » معناها عودة الشاعر الى أسرته ، فكتبت فى ٢ ديسمبر عام ١٨٣٥ الى هوجو تقول :

« لست الوحيدة التى الاحظ انك قد تغيرت منذ عام، وارى أن عاداتك ومشاعرك قد تغيرت . وقد أكون الانسانة الوحيدة التى يمكن أن تموت من الحزن من جراء ذلك، ولكن هذا لايهم طالما ان الاسرة مسرورة والبيت سعيد .. ! »

وكانت جولييت وقتئذ تشكو خاصة من أن هوجو أصبح أقل اشتهاء لها من قبل ، وقد كتبت اليه تقول : « أؤكد لك جادة بلا مزاح يا عزيزى توتو (١) الصغير أننا نسلك سلوكا يثير السخرية والضحك حقا . وقد حان الوقت لنضع حدا لهذه الفضيحة ، فضيحة عاشقين يعيشان فى أتعس حالة من حالات الطهر .. »

---

(١) اسم التدليل الذى كانت تطلقه جولييت على فيكتور هوجو

تحت قبة الأكاديمية

تحت قبة الأكاديمية

ان كتابة قصائد الحب أمر طبيعى بالنسبة للشـــاعـر الشاب ، ولكنه حينما يبلغ مرحلة النضج ينتظر من نفسه شيئا آخر .. وكذلك كان فيكتور هوجو فى الفترة مابين عام ١٨٣٦ وعام ١٨٤٠ يشعر بالقلق لانه لايلعب أى دور فى الحياة العامة ، حقا ان التغنى بسحر جولييت وجمال الشمـس والغابات شىء جميل ، ولكن هذا لا يمكن أن يملأ حياة رجل يريد أن يكون روحا تقود الآخرين ..

لقد كان هوجو حينئذ يريد أن يختلط بأولئك الذين يقررون مصائر الدول ، وكان يرى أنموذجه المفضل شاتوبريان عضوا فى مجلس الشيوخ الفرنسى وسفيرا ووزيرا للخارجية ـ وكان هوجو يريد بدوره أن يكون عضوا فى الاكاديمية الفرنسيـة ، وهو أمر طالما ذكره عنه سانت بوف فى مرارة وسخرية

وكانت جولييت ، وكذلك ابنته ديدين ، لايروق لهما رؤيته مرتديا ثوب الاكاديميـة الاخضر الموشى ، وكانت ديدين قد ربيت على الا تحب هذه الثياب المزركشة ، أما جولييت فكانت تخشى أن يكون فى قبول حبيبها عضوا بالاكاديمية وما يتبع ذلك من التزامات اجتماعية مايشغل وقته ويبعده عنها

وفى فبراير من عام ١٨٣٦ اقترع على قبول فيكتور هوجو عضوا فى الاكاديمية الفرنسية ليحل محل الفيكونت لينيه ، ومن الغريب أن جولييت درouيه قد تنبأت بفشله قبل عملية الاقتراع بثلاث ساعات ، اذ قالت له فى مزيج من التشفى

والسرور : « بعد ثلاث ساعات لن تقبل عضوا فى الاكاديمية يا عزيزى الصغير ، وسوف تستطيع ان تفخر بذلك فى يوم من الايام . أما من ناحيتى ، فأنا ــ كديدين ــ لا أحب أن أراك مرتديا ثوب الاكاديمية ، لاننى لا أتمسك بالمزايا السياسية التى تعود عليك من جراء ذلك ، وأحب أن أظل محتفظة بك »

وعاد هوجو الى مجرى حياته اليومية دون ان يشعر بيأس كبير أو بخيبة أمل مريرة من جراء هزيمته التى كانت سببا فى أن يزداد ارتباطه بأسرته . .

وكانت آديل لا تزال تتبادل الرسائل مع سانت بوف ، ولكن على فترات طويلة ، فأصبح هذا يشك فى أن حبها له لم يعد بالنسبة اليها سوى حلم من أحلام الماضى ، والواقع أن الايام مالبثت أن أثبتت له صحة ظنونه

وسافرت مدام هوجو وأولادها صيف عام ١٨٣٦ بطوله عند والدها السيد فوشيه فى فوركوه بغابة مارلى ــ لافى روش كما كانت تفعل من قبل ــ وبعد فترة قصيرة فاجأها هوجو بوصوله الى هناك ، فكان ذلك بالنسبة لاولاده عيدا أى عيد !

وحينما كان هوجو يتركهم ليسافر مع جولييت ، كانت ابنته ديدين تكتب اليه قائلة : « اننى ألومك يا والدى الصغير المسكين لانك تمشى كل هذه المسافات الطويلة على قدميك لتجد فى النهاية طعام عشائك وقد أعد اعدادا رديئا ، وعلى أية حال فلست غاضبة منك لان ذلك سيجعلك تسرع بالعودة الى بيتك فى فوركوه حيث لن تجد الا أناسا يحبونك بكل قلوبهم » ...

ولما كان هوجو يعود الى ميدان رويال ، كانت زوجته تلحق به هناك ، ولكن أولاده كانوا يبقون فى فوركوه

وكان قطع العلاقة بين آديل وسانت بوف ، معنـــاه أن هوجو يجب ان يوزع نفسه بين زوجته وجولييت توزيعا عادلا. ومن ناحية جولييت لم يكن كل شيء بالنسبة لها الا حبا ، غير أنه كان يعيش بين عواطف الفقر

وكان هوجو قد أسكنها فى باريس فى شقة صغيرة بشـــارع القديس أنستاس الذى يقع فى حى ماريه بالقرب من ميـدان رويال .. وكانت هذه الشقة مملوءة بصور هوجو ورسوماته وكثيرا ما كان العاشقان يخرجان سويا الى محلات بيع التحف القديمة لشراء التماثيل القوطية والاقمشة القديمة . وكانت جولييت قد أعدت للشاعر فى غرفة نومها نارا جميـــلة على مقربة من الفراش ، وركنا للعمل به منضدة عليهـا كثير من ريش الاوز المبرى ومصـــباح كبير على أهبة الاســـتعداد ، ومئونة ضخمة من ورق الكتابة ..

وكانت جولييت كثيرا ما تقضى الليـــل بطوله راقدة فى فراشـــها تنظر الى رأس شاعرها الصغير يؤلف الاشعار الخالدة

وكانت جولييت كثيرا ماتقضى شطرا كبيرا من الليل راقدة فى فراشها ، وهى تنظر دون أن تنطق بكلمـــة واحدة الى شاعرها الجالس على المنضدة يدون اشعار ، فكانت هــذه الساعات بالنسبة اليها بمثابة تعويض رائع عما كانت تحس به من اذلال فى أوقات أخرى . وذات مرة قال لها هوجـو بعد أن فرغ من كتابة احدى روائعه :

ــ هل جعلتك تنتظرين طويلا يا عزيزتى ؟

فردت عليه جولييت قائلـــة ، وهى تنظر اليـــه فى وله واعجاب :

ـ انتظر .. لقد كنت طيلة الوقت أنظر ، دون ان أشبع ، الى رأسك الصغير الملهم ووجهك الجميل النبيل ، فاستولى على نفسى اعجاب لم أعرف له مثيلا ..

وذات ليلة كتبت له جولييت هذه الابيات :

« كم كنت مخطئة لاننى أردت شيئا أفضل .. »

« فالساعات تنقضى هكذا .. رائعة جميلة »

« حقا انك جالس هناك .. ولكن عينى لاتترك أبدا عينيك

« حقا انك جالس هناك .. ولكننى أرى أفكارك تغدو وتروح »

« كم أنا صغيرة .. وأنا فى ركنى الى جوارك »

« فأنت أسدى .. وأنا يمامتك الصغيرة »

« اننى أسمع حفيفا هادئا .. ينبعث من أوراقك »

« واذا ماسقطت ريشتك .. فأنا التى ألتقطها لك »

وكان هوجو يتأثر من أنه معبود على هذا النحو ، غير أن هذه العبادة لم تكن عمياء .. اذ كانت تتخللها فترات من الثورة والغضب والغيرة لان جولييت كانت تعرف أن هناك سردابا سريا يؤدى مباشرة الى ميدان رويال حيث يسكن فيكتور هوجو ، ولم يكن يخفى عليها وهى التى ذهبت الى هناك عدة مرات ، أن هناك نساء أخريات يقعن فى سحر الشاعر الجميل العظيم . وقد كتبت اليه ذات مرة تقول :

« انك جميل .. جميل أكثر مما ينبغى ، الى حد أننى أشعر بالغيرة وأنا معك . إنى أريد أن تكون لى وحدى لان لى من الروح ما يكفى أن يعوضك عن حب جميع النساء » ..

كانت هذه « الملذات السرية » تثير قلقها وغيرتها فى آن واحد ، خاصة وانها ضبطته متلبسا بالكذب أكثر من مرة

كأن يقول لها : « انني مضطر للذهاب لرؤية أسرتي في الريف يا عزيزتي .. »

ولكنها لا تلبث أن تكتشف ان الاسرة لا تزال في بيته بميدان رويال ، فأي النساء كان يخفيهن وراء هذا الكذب ؟ لقد غارت من قبل من الممثلتين الجميلتين الآنسة جورج ، وماري دورفال .. وهاهي ذي الان تخشى صانعة قبعات مدام دورفال ، وتخشى أيضا آنسة تدعى ليزون تعمل راقصة على مسرح الاوبرا

وكانت هناك نساء كثيرات يحاولن اغراء هذا الرجل الذي كان لا يبذل أي جهد لمقاومتهن ، فمن ممثلات يتطلعن الى الحصول على أحد الادوار ، الى كاتبات مبتدئات وسيدات ضعيفات الخلق من المجتمع الراقي ، كلهن يأتين ويقرعن باب ذلك المكان السري الذي اتخذه هوجو مكتبا له !

ولم يكن من المعقول أن تمنعه جولييت من الخروج بدونها في الوقت الذي كانت فيه سجينة في غرفتها ، فلما لم تعد تستطيع أن تروض نفسها على هذا الطغيان كتبت اليه تقول:

« منذ نحو اربع سنوات وأنا أرزح تحت وطأة حبك حتى أصبحت في حالة لا استطيع معها أن أتنفس أو أتحرك . وقد أصبحت ثقتي فيك عرضة لان تدفن تحت انقاض علاقاتنا .. »

والواقع أن جولييت ماكانت لتحتمل ذلك كله لولا تلك الرحلات اللطيفة الممتعة التي كان يصطحبها فيها معه ، فكانت تقضي معه كل صيف أوقاتا رائعة تدوم خمسة أو ستة أسابيع يسافران فيها الى بلدة فوجير أو الى بلجيكا حيث الحصون العتيقة والابراج العالية

اما آديل ، فكانت تبقى مع أولادها الاربعة فى الريف ،وكان يصلها من زوجها خطاب كل يوم .. ولكنها منذ لم يعد يتردد عليها سانت‌بوف لتنفس عن مشاعرها ،لم تعد تستطيع أن تقبل اختفاء الزوج بنفس الروح العالية التى كانت تتقبله بها من قبل ، ولهذا فقد كانت تقول له :

« فى السنة القادمة ، يجب الا تسافر بدونى .. »

وفى ٥ مارس عام ١٨٣٧ ، وقع حادث محزن لم يكن فى الحسبان .. فقد توفى المسكين أوجين هوجو مصابا بالجنون، وكانت وفاته تعطى لفيكتور هوجو الحق فى أن يحمل لقب فيكونت ، وهى خطوة تؤدى الى مجلس الشيوخ ، وبدأت آديل‌بالفعل توقع رسائلها بهذا التوقيع : « الفيكونتيسة فيكتور هوجو »

ولم يكن يخفى على هوجو مدى ماكانت تقاسيه جولييت من جراء انقطاع صلتها بالمسرح ، وكان لاينكر بينه وبين نفسه أنه كان مسئولا عن ذلك ، ومن ثم فقد أراد بعد أن فرغ من كتابة أروع مسرحياته « روى بلاس Ruy Blas » التى كتبها فى شهر واحد ، أن يسند اليها دور الملكة فى هذه المسرحية ، فأثار ذلك فى نفسها سعادة جارفة

ولكن آديل تدخلت فى الموضوع ، فأرسلت دون علم زوجها خطابا الى جولى مدير المسرح تعبر له عن مخاوفها من جراء اسناد الدور الى ممثلة ليست أهلا للقيام به ، مما يؤثر تأثيرا سيئا على مسرحية زوجها التى تتوقع لها كل نجاح ، والواقع أن آديل كانت تخفى غيرتها من جولييت تحت ستار من « الغيرة الفنية » على أعمال زوجها الادبية . ونجحت اديل فى تحقيق رغبتها ، ولا سيما أن هوجو كان قد خضع هو

الآخر الى رأى مدير المسرح ، فكان ذلك بالنسبــة لجولييت ضربة أليمة بالغة القسوة

غير أن المحبة المسكينة المخلصة التي تبدد من نفســـها آلخر شعاع من الامل في العودة الى المسرح ، وكسب عيشها وعيش ابنتها كلير عن هذا الطريق ، تصرفت تصرفا رائعا في ليلة الافتتاح .. فارتدت لتلك المناسبة ثوبا جديدا ، وذهبت لشاهدة المسرحية وكادت تدمى كفيها الجميلتين من كثــرة التصفيق !

ولكن ماذا يئول اليه مصيرها لو حدث أن هجرها هوجو ؟ وحتى لو أنه ظل مخلصا أتبقى طيلة حياتها مجرد امرأة مخطئة؟

وراحت هذه الفكرة الاخيرة تنمو في نفسها مقرونة بأمل في أن يعترف هوجو بحبها العظيم بقسم ينطق به ، لا أمام الناس بل أمام الله ، وما دام الزواج الشرعي بينهما مستحيلا، أفلا يحق لها أن تحصل منه على اقرار روحى بهذا «الزواج الغرامي» ؟! لقد كانت تقول له أحيانا وهي تحرص على ألا تثير غضبه :

« انك انسان غريب لا منطق له ، فأنت تترك ثمرات روحى تسقط أمامك لتأكلهـــا الديدان ، بدلا من أن تقتطفها أنت وتتذوقها كفاكهة عجيبة آتية من الجنة »

وكان هوجو في أول الامر يرد على هذه الرغبات العاطفية في شيء من الضـيق ، متعللا بأنه مرهق بالعمـل .. ولكن جولييت كانت لا تصدقه ، فلماذا اذن كل هـذا التأنق وكل هذه السراويل الضيقة وكل تلك العناية بتصفيف شعره ؟

ولكن سرعان ما تحقق الامل ، ففي ليـلة ١٨ نوفمبر عام ١٨٣٩ أقسم لها هوجو على أنه لن يتخلى عنها قط ، ولا عن

ابنتها كلير ، ووعدته جولييت فى مقابل ذلك بأن تترك مهنة التمثيل الى الابد

ولم يكن هذا الاتفاق من قبيل البيع والشراء ، وانما كان بالنسبة لجولييت نوعا من الزواج العرفى ، أما بالنسبة لكلير فكان معناه أن يتكفل بها هوجو . وكتبت جولييت لهوجو فى اليوم التالى تقول :

« لا شك فى أن هذه سعادة لا مثيل لها وامل قادم من السماء ، حتى أننى لم أنم فى الليلة الماضية غير بضع ساعات قليلة ، فلما استيقظت فى الصباح كنت أشعر بأننى زوجة جديدة .. آه ! انك زوجى تقريبا ! نعم اننى زوجتك ، ونستطيع منذ الان ان نعترف بذلك بلا خجل . أليس كذلك أيها المعبود ؟ ومع هذا ، فاللقب المفضل الذى اريد ان اظل محتفظة به قبل جميع الالقاب الاخرى هو : عشيقتك .. »

ولكن ماذا كان شعوره هو ؟ انه كان يعجب بكل هذا الجمال الذى يعرض نفسه عليه ، وهذه المخلوقة النبيلة وهذا الحب العاطفى ، لقد كان الشاعر يعترف بأنه مدين لها بسبعة أعوام من السعادة أعادت اليه ثقته فى نفسه بعد خيانة زوجته ومع ذلك كان مستمرا فى فرض العزلة على زوجته العرفية ، فكانت تقضى الليل سجينة فى غرفتها .. وهى عيشة كانت تعتبر عذابا أليما بالنسبة لهذه المرأة « من اقليم بريتانى » التى اعتادت أن تحيا فى الهواء الطلق ، هذا فى الوقت الذى كان هوجو لا يزال يستبيح فيه لنفسه أن يرتكب كل أنواع النزوات ..

وكان هوجو لا يزال يرغب بشدة فى أن يدخل الاكاديمية الفرنسية ، ولما كان من ذلك الصنف من الرجال الذى يحصل

دائما على ما يريد ، فقد رشح نفسه للمرة الخامسة لشغل المقعد الذى خلا بوفاة المؤرخ ميشوه فى عام ١٨٣٩

وفى عام ١٨٤٠ ، كتبت اليه جولييت تقول :

« كم أود الا يكون هناك اكاديمية ولا مسرح .. وانما أريد الا يكون فى العالم سوى طرق واسعةوعربات لنقل المسافرين، وفنادق فى الطـريق ، وفيكتور وجولييت يعبـد كل منهما الاخر ... »

ولكنها فى الليلة السـابقة على يوم الاقتراع ، وبينما كان هوجو يهم بالخروج من عندها عائدا الى بيته ، ألقت نفسها بين ذراعيه وهى تقول :

« عمت صباحا يا عزيزى عضو الاكاديمية .. هأنتـذا تجلس على الكرسى فى انتظار أن تصبح رجلا عجوزا !

وكانت جولييت قد أعدت ثوبا جميلا لهذه المناسبة ، وفى الموعد المحدد حضر الى غرفتها رجل مرسـل من قبل هوجو كى يصطحبها الى الحائكة لتحضر ثوبهـا الجـديد ، اذ كان الشاعر يحرم عليها ان تخرج وحدها .. فلما فرغت من ذلك، انطلقت الى الاكاديمية فبلغتها قبل أن يصل اليها أى مدعو آخر ...

ولم تكد تنقضى لحظات حتى ضـاق المـكان على سـعته بالحاضرين الذين كان من بينهم آديل وأولادها وعـدد من الشخصيات الكبيرة ، وعدد كبير من الممثلات اللاتى أخـذن يشرن خفية الى جولييت وآديل ..

وسرعان ما وصل الشاعر الشاب وعلامات الانفعال بادية على وجهه ، وكانت ابتسـامته الاولى موجهة الى جـولييت فكاد يغمى عليها من فرط التأثر . وفيما بعد ، كتبت اليه

تقول : « شكرا أيها المعبود .. شــكرا لانك فكرت فى المرأة المسكينة التى تحبك فى مثل تلك اللحظة الجادة السامية .. »

***

وعلى الرغم من أن هوجو كان وقتئذ على قدر عظيم من الثراء ، فقــد كان لا يكف عن وعظ امرأتيه بالاقتصــاد فى النفقات ، وكان يردد قائلا :

« ان رأس المال يجب ان يبقى سليما لا يمس ، وعلينا أن نعيش من الدخل .. »

ومع ذلك فقد كان لا يبخــل أبدا على نفسه ، فأصــبح متأنقا في ملبسه .. الامر الذى كانت جولييت تشــعر من أجله بالقلق ، رغم أنها هى التى كانت قد أوعزت اليه بذلك حينما رأته لايهتم بأناقته فى بدء علاقتهما .. وفي ذلك كتبت اليه تقول :

« اننى أعض بنان الندم على اليوم الذى نصحت لك فيه بالتأنق ! ولكن هل كان يدور بخلدى انك ســوف تحب يوما هذا التعالى الذى لا يليق برجل مثلك ؟! آه لو أســتطيع أن أعيد اليك حمالات سراويلك التى كنت ترتديها فيما مضى ! ، وكذلك شعرك الهائش وأسنانك التى كانت تبدو كأســنان تمساح ! »

وكان هوجو يتركها تقول ما تشاء ، فرجل الدولة المقبل يجب أن يكون عظيم المظهر .. أما آديل التى كانت تشــعر بمدى متانة العلاقة بين زوجها وجولييت وتقلق كثيرا من جراء ذلك ، فقد حاولت أن تستغل طموح زوجهــا لتشن هجوما على جولييت ، فكتبت اليه تقــول : « لشــد ما اخشى أن

تضطرك هذه الالتزامات التى أخذتها على عاتقك الى سحب جزء من مالك الذى ادخرته بعد جهد جهيد .. ومن ناحيتى تنازلت عن كلّ حق من حقوقى فيما يختص بالثروة ، ولا أعتبر نفسى أكثر من رئيسة بيتك المكلفة بمراقبة شئونه .. اننى أحدثك كأخت او كصديقة ولا أسعى أبدا وراء أية مصلحة لنفسى ، ولست أدرى ماذا أستطيع أن أفعل كى تصدق ذلك ، ففكر فى أمر مستقبلك ، وابحث أى الطرق حتى تستطيع أن تخفف من أعبائك .. »

وكان التخفيف من أعبائه معناه أن يقطع علاقته بجولييت، وهو الذى لم يفكر قط فى ذلك . حقاً أن الروابط الجنسية بينهما كانت أقل قوة عما كانت عليه في الماضى، ولكن جولييت كانت تقوم بالدور الذى لم تعرف زوجته أن تقوم به أو لم تشأ أن تقوم به : دور المرأة التى تحب أن تصحبه فى رحلاته وتدون له رواياته وأشعاره ، والخادمة التى تطريه وتمدحه وتمتثل لامره ونهيه. ولهذا ، فاننا نلاحظ بسهولة أن أشعاره التى يشيع فيها روح الاعتراف بالجميل كانت لا تزال تهدى الى جولييت : « جولييت ، هذا الاسم الساحر ، ينمو فى نفسى ويصبح شعرا .. انكّ لست قلبى وحسب ، وانما كلّ أفكارى ، واذا كان لدى شىء من العبقرية فهو آت منك .. »

وكان لآديل وقتئذ بعض علاقات غرامية ، فبعد أن قطعت علاقتها بسانت بوف ، اخذت تغازل فى شىء من الدلال والميوعة صديقا آخر كان قد جاء الى منزل هوجو منذ مدة، واصبح الان ناقدا عظيما فى كل فروع الفن : المسرح ، والادب، والتصوير .. هو تيوفيل جوتييه الذى يطلقون عليه اسم : « تيو الطيب »


محنة عروسين

محنة عروسين

نحن الان فى يناير من عام ١٨٤٣ م ، والعام الجديد يبدو جميلا حافلا بالأمال الحلوة .. فلأول مرة منذ خمس سنوات ، سيعرض هوجو مسرحية جديدة على مسرح الكوميدى فرانسيز هى مسرحية « لى بروجراف » ، كما أن ابنته الكبرى ديدين «ليوبولدين» وكانت مخطوبة الفتى تحبه الاسرة كثيرا يدعى شارل فاكيرى ــ سوف يعقد قرانها فى فبراير القادم . وأخيرا ، فقد كان هوجو وجولييت يزمعان القيام برحلة الى أسبانيا فى الصيف القادم .. اليس ذلك برنامجا رائعا ؟

وعلى الرغم من كل ذلك ، كانت علامات الكآبة والحزن بادية على وجه الكاتب الكبير .. فهل كان يخفى شيئا ما؟ أم أنه كان يقاسى من قلق مجهول ؟

وتم زواج ديدين ، وكان لرحيل الابنة الكبرى التى نضجت سريعا أثر كبير على نفس هوجو اذ كانت هى الابنة المفضلة التى يحبها حبا جما ، وكانت من ناحيتها تبادله هذا الحب

ولما رات جولييت دروويه مدى حزن هوجو على فراق ابنته ، كتبت اليه تقول : « آمل أيها الملاك المسكين أن تكون أكثر شجاعة ، والا تكون سعادة ابنتك المعبودة بالنسبة اليك مثارا لليأس والدموع .. »

***

وحل فصل الصيف ، وسافر هوجو وجولييت كما اتفقا

من قبل الى الجنـوب الغربى من اسـبانيا ، على الرغم من معارضة آديل . وكان هوجو يتوقع أن تشفيه هذه الرحلة من احزانه التى كان يشعر بها فى باريس منذ زواج ديدين ، التى أصبحت الآن حاملا فى الشهر الثالث ، والتى كانت قد الحت على والدها فى الا يسافر الى اسـبانيا مدفوعة بقلق غامض ، وذلك حين ذهب الى مقاطعة نورماندى ليودعها فى اليوم التاسع من شهر يوليو

وكتب هوجو وقتئـذ يقول لابنته بعـد رحيله : « آه لو تعلمين يا ابنتى كم اصبح كالطفل الصـغير لما أفكر فيك .. ان عينى تمتلئان بالدموع حينئذ وأود الا اتركك أبدا .. ان هذا اليوم الذى قضيته عندكم فى بلدة الهافر شعاع مضىء فى فكرى لن انساه قط ما حييت »

ومع ذلك فقد شعر هوجو بسـعادة جارفة لما رأى أول عربة تجرها الثيران باصواتها المتوحشة التى كانت كموسيقى تذكره بسـنوات طفولته العزيزة ! ان اسـبانيا قد سحرته بمناظرها الطبيعية العنيفة ، ولغتهـا الحبيبة ونسـائها الرشيقات ..

وعلى مقربة من مدينة سان سباستيان ، شـاهد هوجو مكانا بديعا به كثير من المنازل البيضـاء العـالية ، وآلافا من النوافذ التى علقت فيها الخرق الحمراء والصفراء والزرقاء، ونساء فاتنات يجدفن فى القوارب ، لهن عيون سوداء واسعة وشعر فاحم رائع ...

وبعد أن توغل هوجو وجولييت حتى بلدة بيمولون ، عادا عن طريق جبال البرانس فوصلا فى الثامن من سبتمبر الى جزيرة اوليرون .. وكان يبدو على هوجو انه يرزح تحت وطأة

حزن غريب يقارب حد الانهيار ، وكانت هـذه الجزيرة ذات منظر كئيب فبدت له كأنهـا « نعش كبـير ممـدد فى عرض البحر »

وفى اليوم التالى ، فرا من الجزيرة واتخذا طريق العودة حتى وصلا الى مدينة روشفور ، وكان هوجو يريد أن يذهب من هناك الى ميناء الهافر ليرى ابنته الكبرى ديدين وزوجها شـارل فاكيرى ، خاصـة وأن زوجته وأولاده كانوا يقيمون وقتئذ على مقربة منهما ببلدة جرافيل فى فيللا صـغيرة كان والدها مسيو فوشيه قد أجرها لهم ، وكانت فكرة أن الاسرة على وشك ان تكون كلها مجتمعة تعيد الى الكـاتب مرحـه وبهجته

وما كادا يبلغان قرية سوبيز الصغيرة حتى اقترحت عليه جولييت أن يستريحا بعض الوقت فى حانة صغيرة ، يشربان فيها زجاجة من الجعة ، ويقرآن الصحف التى لم يطلعا عليها منذ أيام

ودخل هوجو وجولييت الحانة ، وكانت خالية تمـاما الا من شاب كان يجلس وحده الى منضدة صغيرة ، وسـيدة جالسة الى خزينة النقود ، هى صاحبة المقهى ..

وجلس هوجو وجولييت فى ركن بأقصى الحانه ، وكان على المائدة مجموعة من الصحف .. وبعـد أن طلبـا زجاجة من الجعة ، تناول هوجو أول صحيفة أمامه وأخذ يتصفحها ، ولم تنقض لحظة حتى التفت الى جولييت ، وقال لها فى صوت مخنوق وهو يشير باصبعه الى خبر فى الصحيفة :

ـ آه ! ان هذه كارثة رهيبة !

ورفعت جولييت بصرها اليه ، فشـاهدت على وجهـه

أمارات يأس لا توصف . وكتبت جولييت درouويه فى مذكراتها فى ٩ سبتمبر تصف هوجو فى تلك اللحظة :

« لن أنسى ما حييت تعبير اليأس البالغ الذى كان يكسو وجهه النبيل وهو يشير باصبعه الى الصحيفة .. لقد كان منذ لحظة واحدة باسما سعيدا ، وفى أقل من ثانية ، وبلا مقدمات - صار كالمصعوق .. كانت شفتاه بيضاوين ، وعيناه الجميلتان تنظران دون أن تريا شيئا وقد بللت الدموع وجنتيه ، وأمسكت يده اليمنى بقلبه كما لو كانت تريد أن تمنعه من أن يثب من صدره ، فأخذت الجريدة ورحت أقرأ الخبر ... »

أما ذلك الخبر الذى أشار اليه هوجو ، فكان يقص حادثا أليما ، وهو غرق ابنته المفضلة ديدين وزوجها شارل فاكيرى!

ففى ليلة الاثنين الرابع من سبتمبر ، غادرت ديدين وزوجها ميناء الهافر وقصدا الى قرية فيليكييه لقضاء عطلة آخر الاسبوع . وفى اليوم التالى ، وبينما كانا يركبان قاربا فى نهر السين ، اذ بالقارب ينقلب بهما فجأة فيغرقان فى النهر

ومن هذه الحانة الكئيبة فى قرية سوبيز كتب الى زوجته يقول :

« أيتها المرأة المسكينة ، لاتبكى ، ولنرض بما ادخره لنا القدر .. لقد كنت أحب هذه الفتاة المسكينة حبا لا تستطيع أى كلمات أن تعبر عنه .. انك تعرفين كم كانت ديدين لطيفة .. انها أجمل وأرق فتاة فى الوجود ..

وا أسفاه ! لقد كانت ديدين سعيدة أكثر من اللازم .. آه ! لشد ما أتألم ! ولشد ما أتوق الى البكاء معك ومع أولادنا الثلاثة المساكين ! .. اننى قادم توا .. لنذرف الدموع معا

يا أحبائي المساكين ، فالى اللقاء فى القريب العاجل . ياعزيزتى آديل .. ان هـذه الضربة المروعة يجب على الاقل أن تزيد الرابطة بين قلبينا ! »

***

وفى ديسمبر – اى بعد انقضاء أكثر من أربعة أشهـر من الحادث – لم يكن هوجو قد شفى بعد من انهياره . لقد هدته كارثة ابنته ، وكان يبدو عليه أنه قد شـاخ عشر سنوات دفعة واحدة ، وفى ذلك كتب الكاتب الكبير بلزاك يقول : « من الجائز ان يكون فيكتور قد تقبل موت ابنتـه كعقاب له على علاقته بجولييت .. »

والواقع ان بلزاك لم يكن مبالغا فى قوله ، فقد أخذ هوجو يكره جولييت لفترة من الزمن ، وأسرع الى زوجته ليـكون الى جوارها ..

وعندما كان يذهب لزيارة جولييت . كانت تتوسل اليه ان يسرى عن نفسه بعض الشيء ، وأن يهرب من هذا التـأمل الاليم الذى استغرق فيه . ولما كان هوجو لايستطيع الكتابة، فقد طلب من جولييت أن تدون له مذكرات عن رحلتهما الى جبال البرانس

وكان هوجو كثيرا مايذهب الى قرية فيليكييه ليبكى على قبر ابنته الذى تحيط به أشجار الورد الصغيرة ، وظـل يحرص سنوات عديدة على أن يكتب فى الرابع من سبتمبر قصيدة فى ذكرى وفاة ابنته الحبيبة . وكان حزنه العظيم ينطوى على ندم لم يكن له من سبب الا أنه كان بعيـدا عن أسرته مع عشيقته ساعة وقوع الكارثة ، وكان لا يقبل ذلك على نفسه

فضيحة سان روك

فضيحة سان روك

من طبيعة بعض النفوس البشرية حين تتردى فى مهاوى الحزن والشرود ، أن تبحث عن السلوى والعزاء بالانغماس فى الشهوات . وهكذا كان فيكتور هوجو فى عام ١٨٤٣ ، اذ كان حزنه البالغ يدفعه الى التماس الخلاص من عاطفة ما .. ولكن اين .. ؟

جولييت ؟ .. انها لم تعد تكفيه . ان هذه المرأة المسكينة التى كانت سجينة فى غرفتها منذ عشر سنوات قد ذبلت .. انها الان فى السابعة والثلاثين ، وكان المشيب قد أخذ يتسلل الى شعرها منذ سبعة أعوام ..

صحيح انها كانت لا تزال تحتفظ بجمال عينيها وطابعها الراقى الحنون ، ولكنها لم تعد « ذلك الجمال الذى لايوصف » الذى عرفه حبيبها فى قمة روعته أيام الاميرة نجرونى .. وفوق هذا ، فقد كانت جولييت تسبب له بعض الضيق على الرغم من روحها اللطيفة ، فما الذى كان لايزال لديها لتقوله له ؟ ان رسائلها اليه لا تعدو أن تكون فى نهاية الامر الا تراتيل طويلة من المديح والشكوى ؟

لقد أصبحت جولييت تشك فى أنه يعنى حتى بأن يقرأ رسائلها ، فكتبت اليه تقول : « لم أعد أصلح لشىء فى هذه الدنيا حتى لان أجعلك سعيدا ، فمنذ عامين ونصف وأنت لا تكاد تعرف أننى فى هذا العالم لاحبك . لست أنكر أنك انسان نبيل بكل مافىهذه الكلمة من معنى ، ولكن ليس هذا

هو الحب ، فالحب ليس معناه أن تكون طيبا ونبيلا فقط ..
انى أشعر بأننى لا أخدع نفسى ، ولكننى أحبك حبا يفوق الحد ، وربما كان هذا سببا فى أننى لا أرى الامور فى وضوح ..

اننى أعرف تماما أنك تحتفظ منذ أكثر من عامين بكل مظاهر الحب فى أحاديثك وفى تصرفاتك معى ، ولكن علام يدل ذلك ؟ انه يدل فى نظرى على أنك رجل مهذب حسن التربية ، فهل هذا كل شىء ؟ .. كلا ، فهناك من المشاجرات العنيفة ما هو أكثر بلاغة واقناعا للقلوب المحبة من المديح والغزل ، وهناك من الركلات ما هو اكثر حبا وحنانا من بعض القبلات التى تطبع على الجبين ، أو حتى على الشفاة » ..

ان جولييت كانت على حق .. فعلى الرغم من أن هوجو كان يعترف بمبلغ تضحياتها وقسوة الحياة التى يفرضها عليها ، الا أنه لم يعد يشتهيها ، لقد كان لها الحق فى أن تخرج معه فى ثلاث مناسبات تذكارية فقط : أول يناير ، والسابع عشر من فبراير ، وهو ذكرى الليلة الاولى لغرامهما ، والتاسع عشر من مايو ، وهو عيد القديس جولى

لقد كانت جولييت ترتاب فى أن هناك نساء أخريات يشبعن رغبات حبيبها الحسية ، والواقع ، انها لم تتعد الحقيقة فى شكوكها وهواجسها ، اذ كانت هناك كثيرات من الممثلات والفتيات الشابات ممن يعشقن الادب كن يصعدن جميعا سلم ميدان رويال الخفى . وكتبت اليه جولييت فى ١٧ يناير عام ١٨٤٣ تقول :

« أعرف أن لديك من الفضول مايدفعك الى رؤية ومعرفة تلك النسوة اللاتى ينشغلن بك انشغالا يثير كبرياءك كرجل وكشاعر وكاتب . ولست أريد من ناحيتى أن أمنعك من

ذلك ، ولكننى أحس فقط بأننى سأموت عند أول خيانة ، هذا كل ما هنالك .. »

***

وعلى الرغم من ذلك ، فلم تحل بداية عام ١٨٤٤ حتى كانت هناك ملكة جديدة تتربع على قلب هوجو ، وهى الفتاة الشقراء ذات العينين الهائمتين « ليونى دونيه »

كانت ليونى فتاة نبيلة نشأت فى الاوساط الراقية ، وهربت وهى فى الثامنة عشرة مع رسام يدعى فرانسوا بيار لتقيم معه فى الاستديو الخاص به فى ميدان فاندوم . وكان بيار هذا رساما لاموهبة له ، منحل الشخصية بعض الشىء .. ولكنه احرز نجاحا كبيرا ، اذ كان لويس فيليب يبحث عن لوحات تاريخية كبرى ليزين بها قصر فرساى ، وهو نوع من اللوحات كان بيار ينتجه بالجملة

وكان بيار قد سافر الى النرويج وبلاد الاسكيمو ، ومن هنا أصاب بعض الشهرة الرومانتيكية التى أثارت اعجاب ليونى ، فرافقته فى عام ١٨٣٩ فى رحلة الى شمال أوروبا أظهرت خلالها كثيرا من ضروب الفتنة والشجاعة والميوعة

وفى العام التالى ، تزوجها الرسام وهى حامل فى الشهر السادس ، وأقامت معه على شاطىء السين على مقربة من بلدة ساموا ، حيث اشترى لها منزلا جميلا ذا حديقة واسعة ، وقاربا صغيرا للنزهة . ولم يأت عام ١٨٤٢ حتى أصبحت « مدام بيار » معروفة على أنها أول فرنسية سافرت الى منطقة سبتزبرج ، فأخذت تستقبل فى بيتها كثيرا من الكتاب والشعراء عن طريق جارة لها تدعى مدام فرتونيه هاملان ،

وهى امرأة فى السابعة والستين من عمرها كانت معــروفة جيدا أيام حكومة الادارة ، وكان شاتوبريان وهوجو من بين أصدقائها

وقدمت مدام هاملان فيكتور هوجو الى زوجة الرسام ، فأعجب كل منهما بالاخر وتقابلا عدة مرات ، ولكن سفــر هوجو مع جولييت الى جبال البرانس فى عام ١٨٤٣ وغرق ابنته ليوبولدين مع زوجها قد أنقذا جولييت من أن يخونهــا هوجو مع هذه السيدة

والآن فى عام ١٨٤٤ ، هاهو ذا هوجــو يئن تحت وطــأة الحزن الذى ألم به من جراء كارثة ابنته ، فيرغب فى أن ينتزع نفسه من الالم بأن ينغمس فى العمل والحياة الرسمية ، ومن ثم فقد أخذ يواظب على زيارة الاكاديمية الفرنسية والبلاط، وبالطبع على حبه الجديد !

ولم تكن مدام بيار سعيدة فى ذلك الوقت مع زوجها الفنان الذى كان يسىء معاملتها ، ولما كانت الشفقة بالنسبة لفيكتور هوجو أمرا يحرك عواطفه ويثير رغبته ، فقد تقابل هــذان الشخصان اليائسان وأخذا يخرجان فى نزهات ليلية يشاهدان فيها باريس التى وصفها فى رواية « نوتردام » ، وأخــذ الشاعر يكتب القصائد ورسائل الحب من جــديد لملاك غير جولييت ..

وكانت هذه الرسائل مشابهة للأسف لتلك التى كان يكتبها لجولييت ، ذلك أن الرجل لا يستطيع أن يغير نفسه تماما ، فبينما يظل دور العاشقة دائما هو نفس الدور ، يوزع الرجل هذا الدور على نساء أخريات .. هكذا كان الامر بالنسبــة

لهوجو ، الذى كان يوزع دور المحب على « ممثلة » أصغر سنا وأكثر صلاحية

ولما كانت كل « ممثلة » تصبغ دورها بسمات معينة تتفق مع طبيعتها الخاصة ، فقد كانت ليونى بيـــار تؤدى دورها بطريقة تختلف عن طريقة جولييت دروويه ، فهى وأن كانت تتفق معها فى زعمها بأنها هى الاخرى روح جريحة مسكينة ، وهو أمر كان يؤثر تأثيرا بالغا فى نفس الشاعر المرهفة ، الا انها لم تكن بدائية عنيفة كجولييت .. وانما كانت من ذلك الطراز الذى يمتزج فيه السحر بالميوعة باسمـــة كانت أم غاضبة

ولما ذكرته جولييت بوعوده ، اجابها قائلا :

ـ ماذا اقول لك ؟ لقد كنت دائما مصدر سعادتى ، وأنت الآن عزائى وسلواى .. فكونى كما انت سعيدة مبـــاركة ، واطردى من قلبك العظيم هذه الغيوم المؤقتة وهذه الاشباح التى تمر ...

وبقدر ما كان هوجـو يقلل من زياراته لجولينت ، كان يكثر من التردد على بيت مدام هاملان حيث كان يلتقى بليونى بيار . ومن حسن الحظ ، كانت جولييت لاتعرف شيئا عن ليونى بسبب العزلة التى كانت تعيش فيها ، ولكن شكوكهـا كانت تتجه الى مدام هاملان ، فكتبت تقول لهوجو فى الرابع من ديسمبر عام ١٨٤٤ :

« وا أسفاه ! ففى الوقت الذى تخصنى فيه وحدى بكتابة رسائلك وتصحيح « بروفات » المطبعة ، تمتـــع الاخريات بالباقى .. وقد حلمت ليلة أمس أننى أشبع هـــذه المراة ضربا ، وأتعشم أن أحقق فى النهار ماحلمت به أثناء الليل ».

ان الطموح يجلب الشقاء ، اذ أن صاحبه لايرضيه شيء .. وهكذا كان فيكتور هوجو ، فمنذ أن ارتدى سترة الاكاديمية الخضراء أصبح لا يحلم الا بحلة « مجلس الاشراف » الموشاة بالذهب . وكانت جولييت لا تريد له أن يشتغل بالسياسة ، أما مدام بيار فكانت على العكس تثير فيه هـذا الطموح وتسانده ، ولما كان هوجو وقتئذ على علاقة طيبـة بلويس فيليب ، فقد صدر فى الثـالث عشر من ابريل عام ١٨٤٥ مرسوم بتعيين « الفيكونت فيكتور مارى هوجو » عضـواً فى مجلس الاشراف : وكان تعليق جولييت الوحيد على ذلك أن بعثت اليه برسالة تقول فيها :

« لست أدرى لماذا أنعم الله الكريم عليك بهذا الشعـر الجميل ـ وهو الذى كان يعرف أنك ستصبـح عضوا فى الاكاديمية وفى مجلس الاشراف ـ بينما خصنى أنا بالشعـر الابيض الذى كان خليقا به أن ينفعك فى مثل هـذه المراكز العتيقة ! »

وعلى العكس من ذلك كان مسيو بيير فوشيـه ـ ذلك الرجل العجوز الطيب ـ يحلم طيلة حياته باليوم الذى يرى فيه ابنته آديل زوجة لرجل من أعضـاء مجلس الاشراف ، ولكن المقادير قد عجلت بوفاة هذا الرجل المتـدين فى مايو عام ١٨٤٥ فكفته مئونة أن يسمع بفضيحة كانت خليقة بأن تسبب له صدمة قاتلة !

ففى فجر يوم ٥ يوليو من ذلك العام ، وبناء على الطلب المقدم من الرسام فرانسوا بيار ، قام مأمور قسم حى فاندوم بالهجوم على شقة منزوية بزقاق سـان روك حيث ضبط فيكتور هوجو ومدام فرانسوا بيار فى وضع شائن ..

وكانت عقوبة الزنا حينئذ عقوبة قاسية ، فقبض على مدام بيار على الفور وأودعت سجن سان لازار ، أما هوجو فقد احتج بالحصانة التى يتمتع بها أعضاء مجلس الاشراف ، فتردد مأمور القسم فى بادىء الامر ، وما لبث أن أخلى سبيله

ولكن فرانسوا بيار لم يسكت على ذلك ، وتقدم بشكوى الى النائب العام باسكييه ، وفى اليوم التالى طلعت جريدة « لاباترى » و « لوناسيونال » و « لاكوتيديييه » وهى تتحدث عن فضيحة يؤسف لها ، ارتكبها أحد أعضاء مجلس الاشراف، وعن اضطرار المجلس الى محاكمة أحد أعضائه بتهمة الزنا

وضحك الاصدقاء والاعداء من هذه المغامرة ، ولكن الملك لويس فيليب تدخل فى الامر ، فاستدعى الرسام بيار الى قصر سان كلو وطلب منه أن يسحب شكواه ، كما نصح فيكتور هوجو بأن يترك باريس لفترة من الوقت .. ولكن الشاعر فضل أن يعتكف ليكتب عند جولييت دروويه . وقد عقب الناقد سانت بوف على ذلك بقوله : « ان هوجو يعمل الآن فى كتاب لا نعرفه ، مؤملا أن تغطى شهرة هذا الكتاب الفضيحة الاخرى »

ولم تكن جولييت تدرى شيئا عن هذه المغامرة ، ولما كتبت اليها أختها مدام لويس كوخ من أقصى اقليم بريتانى تستفسر منها عن معنى هذه التلميحات التى ظهرت فى الصحف ، كذبتها جولييت فى سذاجة وطيبة ..

أما آديل ، فقد تلقت اعترافات زوجها المذنب فى الصباح التالى بصدر رحب ، بل وبلغ من كرم نفسها انها ذهبت لزيارة مدام بيار فى السجن

مأساة كليب

مأساة كلير

ولكن فضيحة سان روك لم تلحق بفيكتور هوجو أذى كبيرا فى حياته العملية ، اذ سرعان ماتوارت هذه المسألة فى زوايا النسيان ، وكانت الضحية الوحيدة فيها هى ليونى بيار، التى ظلت مسجونة فى سجن سان لازار بين المومسات والمجرمات . وأخيرا ، وبفضل وساطة مدام هاملان ، وافق الزوج على ان يوقف تنفيذ الحكم ، واكتفى بأن تسجن زوجته لمدة اشهر فى أحد الاديرة بشارع بوف دى بيرى . وهناك ، كان عشيقها الشاعر يواصل ارسال قصائده اليها ، وعلى الرغم من شعورها فى الدير بضيق شديد ، فقد استطاعت أن تظفر بحب الراهبات ، ونجحت فى أن تغريهن بقراءة مؤلفات فيكتور هوجو . وفى الرابع عشر من أغسطس عام ١٨٤٥ ، نطقت المحكمة بالانفصال الجسدى والانفصال فى الممتلكات بين الرسام بيار وزوجته ليونى

ولما خرجت هذه المراة الجميلة من الدير لجأت الى جدتها .. ولفترة ما وجدت الطريق مسدودا أمامها فى بادىء الامر، ولكن مدام هاملان مالبثت أن مدت اليها يد المعونة ، وقبلت آديل من ناحية اخرى أن تستضيفها ، فأصبحت ممن يزدان بهم صالون ميدان رويال بصفة دائمة . والواقع أن من الصعب علينا أن نفسر سلوك آديل الغريب نحو غريمتها الجديدة .. هل كان ذلك عن رغبة منها فى اظهار تسامحها

ونبل روحها ؟ أم تكفيرا من امرأة مذنبة ؟ أو أنها كانت ترمى الى الانتقام من جولييت ؟ أم تعاونا من جانب زوجة لم تعد تعتبر زوجها أكثر من شريك فى المسكن ؟

وكان دخل هوجو وقتئذ صغيرا الى حد ما ، فقد كان لا ينشر شيئا ، لا لانه كف عن الانتاج ، ولكن لانه استأنف مشروعا قديما هو رواية « البؤساء » . وكانت جولييت هى المكلفة باعادة كتابة مسودات هذه الرواية التى كان فى نية هوجو أولا أن يسميها : جان تريجان

وفى عام ١٨٤٦ ، وجدت جولييت نفسها أمام حادث مروع لايقل أيلاما عن حادث قرية فيليكييه ٠٠ ذلك أن ابنتها كلير براديه ـ التى لم يسمح والدها بأن تحمل اسمه على الرغم من انه كان قد تزوج واصبح رجلا غنيا ـ نمت واصبحت فتاة جميلة حزينة ، وكان هوجو من ناحيته يغمرها بالهدايا ويدفع لها نفقات المدرسة الداخلية ويهيىء لها دروسا خاصة فى الموسيقى ، وباختصار كان يحبها ويعطف عليها باخلاص كبير

ولكن شعور الفتاة بطبيعة وضعها وادراكها للكوارث المحيطة بها والتى لم يكن لها يد فيها ، تركا فى نفسها يأسا دفينا دفعها لان تحاول الانتحار طلبا للخلاص . وقبل أن تقدم الفتاة المسكينة على تلك المحاولة كتبت الى هوجو خطابا مؤثرا تقول فيه : « وداعا يا صديقى فيكتور .. اعتن كثيرا بوالدتى العزيزة ، فهى طيبة ولطيفة للغاية ، وكن على يقين من أن ابنتك كلير سوف تقدر جميلك كل التقدير » .

وخرجت كلير من محاولتها للانتحار بمرض خطير ،فنقلها والدها جيمس براديه الى بيت قذر فى أوتوى يملكه صاحب حانوت صغير ، حيث زارها هوجو عدة مرات . وعلى الرغم

من ان هذا كان امرا طبيعيا ، فقد تقبلت جولييت عمله هذا وكأنه تفضل عظيم . لقد كانت تحب ابنتها حب عبادة ، ولكن ذلك لم يحل بينها وبين كتابة خطابها اليومى لتقول له : « ان روحى مفعمة باليـــأس ، ولكننى أحبك . ان الله الكريم يستطيع أن يسحق قلبى وقتما يريد ، ولكن آخر صيحــة ستخرج منه ستكون صيحة حب لك أيها المخلوق النبيل »

وفارقت كلير المسكينة الحياة اثر هذا المرض ، ودفنت فى مقابر سان مانديه ، وتلقى الفيكونت فيكتور هوجو عضو مجلس الاشراف العزاء مع والد الفتاة ، الذى قرب الحزن بين قلبه وقلب هوجو ، وكان ظهور الكاتب الكبير فى مثــل هذه الظروف ، وبعد فضيحة سان روك ينطوى على كثير من الخطورة ، ولكنه أقدم على ذلك فى بساطة وجرأة ليقدم للفتــاة الميتة ولامها المنكوبة اكبر برهان على الاخــلاص ..

***

ومرة أخرى هاهو ذا هوجو يجد نفسه ذاهــلا حزينا ، فيحاول أن ينسى بالقاء نفسه فى الهاوية من جديد .. انه يجرى وراء المبتدئات والعاهرات ، ويبحث عن المغامرة فى كلّ صـــــورها ، وكأنه قد أصيب بشره عجيب للحم النضر ان العاشق الرومانتيكى يدخل الان فى منافسة مع الاديب الناقد تيوفيل جوتييه والرسام شاسيريوه ، وحتى مع ابنه شارل هوجو على أروع جسم فى باريس : جســـــم « أليس سوزى » . وحدث ماكان يجب أن يحــــدث ، وانتصرت العبقرية على الشباب ، ورضخ الابن آخر الامر فى ألم ينطوى على الاحترام والتسليم « للـــوالد العظيم » ـ كما كان أولاده

يسمونه فيما بينهم ــ وكتب شارل الى أليس يقول : « انك اخترت الوالد بمجــــده ، ولست ألومك على ذلك ، فأى امرأة أخرى كانت خليقة بأن تفعــل مافعلت لو أنها كانت مكانك ... »

وفى الوقت الذى كان فيه شارل يشتم أليس ســوزى بهذه الابيات القاسية :

« اننى أحب جسمك واكرهه .. واحب حياتك واكرهها»
« وا أسفاه ! .. فحياتك حافلة بالحب والفرور »
« انها تمضى تارة فى جمال .. وتارة أخرى فى قبح »
« وأنا .. أذهب معها من النقيض الى النقيض »
« لانى أحبك وأكرهك .. »
« أحبك من أجل حبك .. »
« وأكرهك من أجل عشاقك .. »

فى نفس هذا الوقت ، كان والده فيكتور هوجــو يجلس أمام هذه الحسناء الساحرة فى غرفة نومهـــا ذات السرير الفاخر المصنوع من خشب الورد المطعم « بالسيفر » ، يمتع نظره برقبتها الرائعة التى يتغنى بها الشعراء وساقيهـــا الناعمتين البديعتين ، ويكتب لها هذه الابيات :

« فى هذه الساعة الجميلة ، حين تشحب شمس الغروب»
« وحين تمتلىء السماء بالضوء الاشقر » ..
« كان أفلاطون يحلم برؤية فينوس تخرج من المحيط .»
« وأنا أحلم برؤية أليس تدلف الى السرير » ..

فترة اختبار

كان عام ١٨٥٠ وعام ١٨٥١ بالنسبة لهوجو ، فترة صراع سياسي وعاطفي . وكان هوجو قد انتخب قبل ذلك عضــوا فى البرلمان بأغلبية كبيرة فى شـــهر مايو ١٨٤٩ ، وحصل فى الانتخابات التى أجريت وقتئذ على ١١٧٠٦٩ صوتا ، وكان ترتيبه الثامن فى باريس . وفى أغسطس من نفس العـــام ، انعقد فى باريس أثناء العطلة البرلمانية مؤتمر للســلام حضره مندوبون عن أكثر دول أوربا ، وانتخب هوجو رئيسا لهـــذا المؤتمر باجماع الاصوات

وحين وقعت اضطرابات فبراير المشهورة فى عام ١٨٤٨ ، وهى الاضطرابات التى أدت الى اعلان تنـــازل الملك لويس فيليب عن العرش ، كان هوجو أول من أعلن تنازل المـــلك على جماهير الشعب فى ميدان الباستيل حيث استقبله لامارتين صائحا فى حرارة وحماس : « ان هوجو معنا .. وهو جندى عظيم من جنود الجمهورية ! »

ولما انتخب الامير لويس نابليون بونابرت رئيسا للجمهورية فى أواخر عام ١٨٤٨ أقام الرئيس الجديد فى الثالث والعشرين من ديسمبر أول حفل عشاء له بقصر « الايليزيه » ودعا اليه هوجو ، فحضر هذا متأخرا وكان لويس نابليون قد سبق له أن زار فيكتور هوجو فى يونيو من عام ١٨٤٨ فى بيته بشارع

دى لاتور دوفرنى(١) ليكسبه الى جانبه، وقال يومئذ للشاعر:
« لقد جئت لاتفاهم معك .. انهم يتهموننى ظلما ، فهل تعتقد يامسيو هوجو اننى رجل غير منطقى ؟ انهم يظنون اننى أريد أن أفعل ما سبق أن فعله نابليون . ان هناك رجلين يمكن أن يتخذ الرجل الطموح من أحدهما نموذجا له : نابليون وجورج واشنجتون ، وأولهما رجل عبقرى ، أما الاخر فرجل فضيلة واذا كان نابليون أكثر عظمة الا أن واشنجتون أكثر صلاحا . واذا ما خيرتنى بين البطل المذنب والمواطن الصالح فاننى أختار المواطن الصالح .. هذا هو طموحى يامسيوهوجو »

ولكن فيكتور هوجو كان نائبا تقدميا فى برلمان يسيطر عليه الرجعيون ، فقام بينه وبين لويس نابليون خلاف سياسى شديد سرعان ما أدى الى قطيعة : ان الجناح اليسارى فى البرلمان كان يستقبل لون خطب هوجو اللامعة عن الحريات بعاصفة من التصفيق ، ولكنه فى نفس الوقت كان يعتبره واحدا من رجاله ، أما الجناح اليمينى فكان يلفظه ويعامله على أنه خارج عليه ، وكان نواب اليمين يعاملونه معاملة غاية فى السوء ، فكانوا يلجأون فى الرد عليه الى وسائل عنيفة كالشتائم واطلاق الشائعات الكاذبة . وباختصار ، كان جناح اليمين الذى يمثل الاغلبية الرجعية فى المجلس يستعمل ضد هوجو طريقتين للدفاع : مقاطعة خطبه بالضحكات الساخرة ، وتذكيره بآرائه السابقة

وهكذا بين هذين الجناحين ، ومنذ قطيعته مع قصر

(١) كان فيكتور هوجو قد ترك بيته بميدان رويال بعدحرقه فى اضطرابات فبراير سنة ١٨٤٨

الايليزيه ، كان هوجو يجد نفسه فى وسط صراع سياسى عنيف ، وفى ذلك كتب فى مذكراته يقول :

« يناير ١٨٥٠ ، منذ خمس سنوات ، كنت أوشك أن أصبح الشخص المفضل لدى الملك ، وهأنذا اليوم أصبح الشخص المفضل فى نظر الشعب ، ولكننى لن أكون هذا ولاذاك ، فسوف تحين اللحظة التى يبرز فيها استقلالى ، وحينئذ فان اخلاصى لضميرى سيثير اعجاب رجل الشارع ويغضب فى الوقت نفسه ذلك الرجل الذى يقيم فى قصر التويليرى (١) »

أما سانت بوف الحذر ، فكان قد رحل قبل تلك الاحداث ليقضى هذه الفترة القلقة فى لييج ببلجيكا ، وكانت آديل ترحل الى هناك سرا لتراه بين حين وآخر ، وكانت كلما لامته لانه اهملها واصبح يبدى نحوها كثيرا من التحفظ ، رد سانت بوف قائلا :

« أن صحتى قد أصبحت ضعيفة وجسمى أصبح عصبيا للغاية ، وكثيرا ما تخوننى أعضائى » ..

وكان سانت بوف يؤكد لها أنه أكثر حاجة الى الصداقة المتينة منها الى أية علاقات أخرى . وكتب اليها ذات يوم يقول : « حين اتحدث كثيرا عن شيخوختى ، فذلك معناه فقط اننى قد تخليت عن هذا النوع الاخير من العلاقات »

وبعد ، ألا تثبت لنا هذه العبارة الغريبة أن آديل كانت خاسرة من الناحيتين ؟

وفى الميدان العاطفى ، كان هوجو فى تلك الفترة من حياته موزعا بين ثلاث نساء : آديل فوشيه ، وجولييت درouيه ،

---

(١) يعنى لويس فيليب

وليونى دونيه ، وكن جميعا يعشن على مقربة منه فى دائرة ضيقة على مرتفعات مونمارتر

وكان هوجو يجد نفسه مضطرا لأن يكرس لكل واحدة منهن جزءا من وقته ، فتراه يجرى من الواحدة الى الاخرى ، وكان يحدث فى بعض الاحيان أثناء سيره مع جولييت فى الطريق أن يقابل آديل أو ليونى اللتين كانتا قد تحالفتا معا ضد جولييت!

وكانت حياة جولييت لاتزال على ماهى عليه من الضيق والوحدة مع فارق بسيط ، وهو أن هوجو قد أذن لها فى أن تخرج أحيانا بمفردها للنزهة سيرا على الاقدام. وكانت جولييت لاتزال تجهل الدور الذى كانت تقوم به ليونى فى حياة هوجو

وفى التاسع والعشرين من ابريل عام ١٨٥١ ماتت مدام فورتونيه هاملان بالسكتة القلبية ، وكان ذلك بالنسبة لهوجو حادثا حزينا وكان يعدها صديقة مخلصة وكارثة بالنسبة لليونى دونيه ، التى كانت منذ أن صدر الحكم بالانفصال الجسدى بينها وبين زوجها قد وجدت فى هذه المرأة الذكية خير كاتمة لاسرارها ، فكانت تمضى معها أكثر وقتها اما فى البيت أو فى الاوبرا . وبموت هذه السيدة التى كانت الاعوام قد علمتها شيئا من الحكمة ، وجدت ليونى نفسها محرومة من نصائحها فأخذت تتأمل حالتها وتستعرض ماصنعت بها الايام وخرجت من تلك معتقدة أنها قد أفسدت حياتها من أجل هوجو ، ومن ثم فهى تستحق أن يخصها بأكبر قسط من اهتمامه ، وأن من واجبه على الاقل أن يضحى من أجلها بجولييت دروويه ..

ولكنها كانت كلما حاولت أن تنال من هوجو هذه التضحية، اصطدمت بمقاومة صلبة من جانب هوجو وقوبلت برفض متزايد

٠٠ ففى محاولتها الاولى فى عام ١٨٤٩ هـددته بأن تفضى الى جولييت بكل شيء ، ولكنه رفض أن ينصت اليها ٠ ثم عادت تحاول مرة أخرى أن تضيق عليه الخناق بأسئلة ماهرة كان تقول له : « اذا لم يكن لى حقوق كعشيقة ، فما الذى يبقى لى فى هذا العالم ؟» أو «أنك تمنحها حقوقى ٠٠ وأننى لافضل أن أموت متنازلة عن هذه الحقوق عن أن أقاسمها اياها ! »

وكانت ليونى تكتب اليه فى بعض الاحيان لتقول :

« اننى أقبل أن تراها ، ولكن لاتتهمنى بالقسوة اذا ما لجأت معها الى اجراء حاسم يضع كلا منا فى مكانه الحقيقى ٠٠ ،» أو : منذ اربعة اعوام وأنا أقوم بدور غير مشرف ، فهى تعتقد أنها المرأةالوحيدة التى تحبها ٠٠ ليكن ذلك حسب مشيئتك، وليحاسبك الله على ذلك ٠ وسوف أعيش فى يأس ولكنى سأكون على الاقل بمنجاة من تأنيب الضمير ، وقد جمعت كل ما يخصك هنا وتستطيع أن ترسل أحدا ليأخذه ٠٠ »

لكن ليونى لم تهدأ حتى ضربت ضربتها بعد ذلك بعامين ، ففى صباح ٢٩ يونيو عام ١٨٥١ ، وصلت الى مسكن جولييت بحى روديبه رزمة من الرسائل ملفوفة بشريط حريرى ، بخط فيكتور هوجو ومختومة بخاتمه

وما كادت جولييت تتصفح بعض هذه الرسائل حتى هوت على مقعدها فى يأس ، وقد أطبق على صدرها ألم مميت ٠٠ اذ كشفت لها هذه الرسائل عن سر رهيب : ان حبيبها يحب امرأة أخرى منذ عام ١٨٤٤ ، ويكتب لها رسائل عاطفية رائعة ، تماما كتلك التى كان يبعثبها اليها طيلة ثمانية عشر عاما : « أنت ملاكى وحياة قلبى ٠٠ اننى أقبل دموعك

وقدميك ٠٠ » ياللشناعة ! انها نفس الاستعارات التى كان الشاعر يكتبها من أجلها !

وأرفقت ليونى بهذه الرسائل كلمة موجزة ، قالت فيها ان علاقتها بهوجو لازالت قائمة ، وانها تتمتع من جـــانب أسرته بنوع من الاحترام ، وأن من الخير لجولييت أن تقطع علاقتها بالشاعر ، وهى علاقة لم يعد يرغب فيها وان كان يبقى عليها ـ لا بدافع الحب والاشتهاء ـ ولكن بدافع من الاحتمال القائم على التضحية !

ونستطيع بالطبع أن نتصور مدى الالم الذى أحدثته هذه الكلمات فى نفس امرأة كرست حياتها بأسرها لحب واحد ، لقد كان هذا الدليل القاطع على الخيانة الخفية التى استمرت سبع سنوات سببا فى أن تخرج جولييت من بيتها لتهيم على وجهها طيلة اليوم فى شوارع باريس ، وهى فى حالة تقرب من الجنون ، ثم عادت أخيرا الى مسكنها تحت أستار الليل وهى تأمل أن يأتى هوجو لتخبره بعزمهاعلى السفر الىمدينة برست لتقيم بعيدا عن شقيقتها

ولم يحاول هوجو أن ينكر شيئا ، ولكنه توسل اليها كثيرا كى تسامحه ، بل لقد وصل به الامر الى حد أن عرض عليها التضحية بليونى• ومع ذلك ، فلم يفته أن يطرى جمالغريمتها وثقافتها ، وان يشير الى أن زوجته وأولاده يعاملونها بروح العطف المنطوىعلى الود والاستلطاف مما أدى الىاقناع جولييت بخطورة الموقف

وكانت المسكينة على درجة من الاعتزاز والاعتداد بالنفس ، لاتستطيع معها أن تقبل حبا يساق اليها على أنه تضـــحية ، فأرسلت الى هوجو فى اليوم التالى هذه الرســالة : « باسم

أكثر الاشياء قداسة عندك ، وباسم ألمي العظيم ، لاتبذل من نفسك كرما زائفا من أجلي ، ولا تمزق قلبك لتبقى على سلامة قلبي .. وحتى أنك لو أقدمت على هـــذه التضحية فهي لن تخدعني طويلا ، ولن أغفر لنفسي أنني سمحت لها أن تنخدع بتضحيتك على حساب سعادتك ..

« يا الهي ! اذا كان مجيئي الى هذه الدنيا جريمة ارتكبتها على الرغم مني ، فقد كفرت عنها بمافيه الكفاية .. فارحمني يا الهي .. ارحمني ووفر على نفسي مرارة اليوم الذي أرى فيه الرجل الذي أحبه أكثر من حياتي يتألم جراء خطأ أقع فيه ، فاني أفضل أن أراه سعيدا مع امرأة أخرى عن أن يكون معي بائسا .. وأتوسل اليك يا الهي أن تهيىء له أن يختار بملء حريته وأن تهبه السعادة الحقيقية ، فسوف أباركها حينئذ وأخضـــع لقضائك دون شكوى أو أنين .. »

وبعد تفكير عميق حزين ، فاتحت جولييت حبيبها في قطع العلاقة بينهما ولكنه أخذ يستدر عطفها ويشكو لها ما يقاسيه من ألم في حلقـــه ، وقلق على أبنـــائه الذين تضطهـــدهم حكومة لويس نابليون ، فكتبت اليه جولييت تقول : « أقدم الشكر لهذه المرأة على أنها لم تلجأ الى الرحمة في التدليل على خيانتك لي . ان حبك لها طيلة هذه الاعوام السبعة طعنـــة وجهتها هذه المرأة بكل جرأة الى قلبي .. حقا ان الطريقـــة التي لجأت اليها كانت وحشية وساخرة ، ولكنهـــا مع ذلك طريقة شريفة . ان هذه المرأة جديرة حقا بأن تكون جلادي ، لان كل ضرباتها كانت صائبة .. »

وهكذا نرى أنفسنا أمام موقف نادر طريف : فهاتان إمرأتان

تحبان رجلا واحدا وتكره كل منهما الاخرى ، ولكنهما تتبادلان التقدير بدافع من حبهما العميق !

وكان هوجو وجولييت عاشـــقين رومانتيكيين ، ولما كان شاعرنا بارعا فى أن يصبح لطيفا مرحا وساحرا حينما يريد، فقد وقعت جولييت فى حبائله من جديد ووافقته على فــكرة عجيبة ، وهى أن يمر ثلاثتهم بفترة اختبار مدتها أربعة أشهر يقرر بعدها هوجو من تلك التى يقع عليها اختياره !

وقد ضمنت هذه الفترة لبطل المأساة شيئا من الراحـــة وخلو البال ، إذ كان فى وسعه أن يرى كلا من المرأتين على هواه فى حرية تامة ٠ وكانت ليونى من ناحيتها تطالب بحقوقهـا كاملة غير منقوصة ، أما جولييت فكانت لاتريد أن تأخذ شيئا الا عن طريق الحب : « ٠٠٠ لست أعترف لنفسى بأى حق عليك ، وعندى أن الاعوام التسعة عشر التى أخذتها من حياتى لاتساوى ذرة اذا قيست براحتك وسعادتك ومكانتك ٠٠ »

وفى ٢٢ سبتمبر عام ١٨٥١ كتبت اليه جولييت تقول :

« لست أفهم حتى الآن السر الـذى يدفعك الى التخلى عن امرأة تعتبرها شابة جميلة ممتازة لاتشك لحظة فى حبها لك، وذلك من أجل امرأة مسكينة ضاع منها نصف محاسنها ! لو أنك فعلت ذلك ـ وأنت الرجل العادل الطيب القلب ذو الروح النبيلة ـ لقضيت على تلك الشابة التى لها عليك سبعة أعوام من الحقوق وفى يدها الحاضر والمستقبل ، كل هذا من أجل مخلوقة بائسة تبكى على ماضيها بدموع من دم ، لاحاضر لها ولا مستقبل ٠٠ »

ونستطيع أن ندرك من الخطاب السابق أن جولييت لابد

أنها كانت تحس بقوة موقفها لكى تتحدث بمثل هذه اللهجة.
أما بالنسبة لهوجو ، فان تلك الفترة كانت بمثابة عقاب له لا بأس به ، وكان برنامجه اليومى يسير وقتئذ على النحـــو التالى :

فى الصباح : عمل فى بيت الاسرة بينما كانت جولييت فى مسكنها تعيد له كتابة مسودات رواية « البؤساء » ، ثم لاتلبث أن تلحق به عند مدخل كنيسة نوتردام دى لوريت . وبعد الظهر ، كانت ترافقه فى زياراته للاكاديمية أو للمجلس، ثم العشاء مع آديل وأولاده ، أما السهرة فكانت من نصـــيب ليونى دونيه

والواقع أن هذا الاختبار العاطفى كان يتطور لصـــــالح جولييت فحبها لهوجو كان له طابع دراماتيكى ، ففى الوقت الذى كان لدى جولييت الكثير لتقوله عن ديدين وكلير وغير ذلك عن الذكريات الحزينة ، لم يكن لدى ليونى شىء تتحدث عنه من هذا

وعلى أية حال ، فقد حدث قبل اليوم الذى كان مقررا أن يعطى فيه هوجو اجابته الحاسمة ، أن تكفل القدر بهذه الاجابة بطريقة عجيبة عجلت بحل هذا الاشكال ..


المسافر المتنكر

المسافر المتنكر

في ذلك الوقت ، كان فيكتور هوجو يمر بفترة عصيبة من حياته السياسية ، فمنذ فبراير عام ١٨٥١ كان قد حددموقفه السياسى من لويس نابليون ومن حكومته ، وأصبح يقول فى البرلمان عبارات من هذا القبيل : « اننا لم ننتخب لويس نابليون لانه نابليون وانما انتخبنا الرجل الذى نضج بسبب السجن السياسى ، وكتب من أجل صالح الطبقات الفقيرة كتبا رائعة مشهورة : لقد أملنا فيه ولكن خدعنا فى آمالنا ٠٠»

وكانت حكومة لويس نابليون تحقق مع المسئولين عن جريدة « الاحداث » التى كان يحررها ولداه شارلوفرانسوا فيكتور بالاشتراكمع أوجيست فاكيرى (١)وصديقهم الصحفى بول موريس (٢) ، وقضت المحكمة بالسجن تسعة أشهر على كل من فرانسوا هوجو وبول موريس ، وستة أشهر على أوجست فاكيرى ، أما شارل فكان مسجونا من قبل ، كما حكمت باغلاق الجريدة ، ولكنها عادت الى الظهور من جديد تحت اسم « أحداث الشعب »

وفى ديسمبر من عام ١٨٥١ أصبح الانقلاب ضد لويس نابليون أمرا لا مفر منه ، وكان هوجو يعيش فى انتظار هذه اللحظة الحاسمة ، وكانت جوليت ترهف السمع للشائعات

---

(١) شقيق شارل فاكيرى زوج ليوبولدين
(٢) Paul Maurice

انتظارا للحظة التى يحدث فيها الانقلاب ، فقد كانت خائفةعلى حبيبها الى أقصى حد ..

وفى الثانى من ديسمبر ، استيقظ هوجو فى تمام الثامنة صباحا ،وبعد أن تناول افطاره أخذ يعمل فى غرفته ..وفجأة، دخل عليه خادمه ايزودور ، وقد بدت على وجهه علامات الذعر، وقال :

ـ سيدى ! أن نائبا من نواب الشعب يطلب مقابلتك ..

ـ من هو ؟

ـ انه يدعى السيد فرسينى ...

فقال هوجو فى صوت حاسم النبرات :

ـ فليتفضل ..

وكان السيد فرسينى رجلا شجاعا وناصحا مخلصاً ، وما ان دخل على هوجو حتى ابتدره هذا بقوله :

ـ ماذا حدث ؟

فأجابه فرسينى قائلا :

ـ أن قصر البوربون حوصر ليلة أمس وقبضت الحكومة على بعض نواب الشعب

فقاطعه هوجو قائلا :

ـ هل هذا كل شىء ؟

ـ كلا .. فالاعلانات التى لصقت على الجـــدرآن تعلن الانقلاب ..

ـ وماذا يقول الشعب ؟

ـ انهم يقرأون الاعلانات ويهزون اكتافهم ، ثم يمضـون الى أعمالهم ..

فقال هوجو فى لهفة :

ـ وماذا عن نواب الشعب ؟

ـ ان الذين صمموا على المقاومة منهم قرروا أن يجتمعوا عند البارونه كوينس فى بيتها : رقم ٧٠ بشارع بلانش

فصاح هوجو قائلا فى حماس :

ـ اننا سنقاتل !

وارتدي هوجو ملابسه ، ثم أسرع إلى غرفة زوجته وأفهمها الموقف باختصار ، فسألته قائلة :

وماذا قررت أن تفعل ؟

ـ سأقوم بواجبى ..

فقالت له آديل ، وهى تقبله :

ـ حسنا ! فلتقم بواجبك ..

والواقع أن آديل ، التى كان اثنان من أبنائها فى السجن ، لم تكن تنقصها الشجاعة فى تلك اللحظة ، على الرغم من أنها كانت تعلم تماما أن الانقلابات نادرا ما تحترم النساء ..

وأسرع هوجو الى المنزل رقم ٧٠ بشارع بلانش ، فوجد هناك بعض نواب الشعب .. ولم يمض وقت طويل حتى كانت غرفة الاستقبال تغص بالمجتمعين . وتكلم هوجو أولا ، وكان من رأيه أن تبدأ المقاومة الفعلية على الفور ، ولكن بعض النواب لم يكونوا من هذا الرأى ، وكانوا يرون أن من الافضل أن يترك للشعب الوقت الكافى لكى يفهم

ولما كان هوجو كعادته دائما لا يصدق الا مايراه بعينيه ، فقد أسرع بالخروج الى الشوارع الرئيسية ، وعندبوابة سان مارتان شاهد حشدا ضخما من الناس وعرفه أحد الثوار ، ولما سأله عما يجب عمله أجابه هوجو بقوله :

ـ مزق هذه الاعلانات التى تعلن الانقلاب ، واهتف: فليحيا الدستور !

ـ واذا أطلقوا علينا النار ؟
فقال هوجو فى غضب :
ـ فى هذه الحالة يمكنكم أن تستعملوا أسلحتكم ..
وفى تلك اللحظة ، دوت فى أرجاء الميدان صيحة هائلة : « يحيا الدستور ! » وعاد هوجو بعد ذلك الى زملائه بشارع بلانش ، وأحاطهم علما بما حدث ، واقترح عليهم كتابة بيان موجه الى الشعب ، ثم أملى بنفسه البيان التالى :
« الى الشعب : ان لويس نابليون بونابرت رجل خائن .. لقد حنث بقسمه وخرق الدستور .. انه خارج على القانون . ليقم الشعب بواجبه .. ان ممثلى الشعب يسيرون فى المقدمة »
وانفض الاجتماع ، ونزل هوجو الى الشارع ، فلحق به صديقه النائب برودوون ، وقال له : « اننى أحذرك كصديق .. انك تخدع نفسك ، فالشعب لن يتحرك . » ولكن هوجو أصر على رأيه ، وكان يريد أن تبدأ المعركة فى اليوم التالى ..
كان الليل قد انتصف ، فقضى هوجو الليلة عند أحد أصدقائه . وفى الفجر أسرع الى بيته ، وما ان رآه خادمه ايزودور حتى صاح قائلا فى انفعال : « سيدى ! لقد حضروا الليلة ليقبضوا عليك .. »
وفى اليوم التالى ، وهو يوم المتاريس ، كان هوجو واقفا فى ميدان الباستيل يخطب فى حماس وسط جماعة من ضباط وجنود البوليس
وكان يوم ٤ ديسمبر هو اليوم الفاصل ، فقد وقعت مذبحة فى باريس ، وأخمدت الثورة فى غير رحمة ..

***

كانت جولييت تتبع حبيبها كظله ، وسط كل هذه الاحداث

الدامية ، ولما رأته يقامر برأسه على هذا النحو صاحت فيه قائلة : « انهم سيقتلونك رميا بالرصاص ! »

لقد كانت هذه المرأة الجميلة ذات الشعر الذى وخطه الشيب على استعداد لان تلقى بنفسها عند الحاجة لتحول بينه وبين الرصاص . لقد كانت هى الاخرى تقامر بنفسها وسط هذه المذبحة القاسية ، وكان هوجو يعرف ذلك ويقدره : « لقد ضحت مدام دروويه بكلّ شيء من أجلى ، وأنا مدين لها بحياتى فى معارك ديسمبر ١٨٥١ .. ان اخلاصها وشجاعتها يستحقان حقا كل اعجاب .. »

وبعد ذلك بثمانية أعوام ، كتب هوجو بخطه على هوامش مسودات ديوانه « أسطورة القرون » التى سيهديها الى جولييت الكلمة التالية :

« اذا كنت لم يقبض على أو نجوت من الموت رميا بالرصاص ، واذاكنت حيا أرزق حتى هذه الساعة ، فأنا مدين بذلك لمدام جولييت دروويه التى عرضت حريتها وحياتها للخطر لتحمينى ..

« لقد كانت دائما توفر لى المخبأ الامين ، وكان انقاذها اياى يتم بتفان عظيم ، وبطولة لا مثيل لها ، وأن الله الذى يعلم ذلك سوف يكافئها عليه ، لقد كانت تقف على قدميها طول النهار ، وتهيم على وجهها فى أزقة باريس المظلمة طيلة الليل ، لتخدع الحراس ، وتضلل الجواسيس ، وتمرق فى شجاعة فائقة خلال الشوارع الرئيسية وسط دوى الرصاص . وحين كان الامر يتعلق بانقاذ حياتى ، كانت لا تكف عن البحث حتى تعثر على مكانى بحدس عجيب .. انها لاتريد أن نتحدث

أبدا عن هذه الامور ، ولكننى أقول ذلك كى يكون معروفا للجميع .. »

وكان على هوجو أن يختبىء بعد هذا الفشل الذى منيت به الثورة ، فاستطاعت جولييت فى السادس من ديسمبر أن تجد له ملجأ امينا عند أسرة من معارفها تدعى أسرة مونتفرييه رغم انها كانت أسرة يمينية متطرفة ! وكانت جولييت تذهب اليه تحت جنح الظلام لتزوده بالطعام والأخبار

ومكث هوجو عند أسرة مونتفرييه خمسة أيام كان عليه بعدها أن يغادر البلاد ، ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟

ومرة أخرى استطاعت جولييت أن تحصل لهوجو على جواز سفر باسم فيرمان لانفان ، وهو صديق مخلص لجولييت قبل أن يستخرج هذا الجواز من حكمدارية البوليس بحجة اعمال له فى بلجيكا تتعلق بمطبعة لوتيرو

وهكذا استطاع فيكتور أن يغادر باريس من محطة الشمال فى الحادى عشر من ديسمبر قاصدا بروكسل تحت اسم «لانفان جاك فيرمان » جامع الحروف المقيم فى باريس بشارع دى جونور رقم ٤ ! وكان المسافر يرتدى قبعة مستديرة والحرملة السوداء التى يرتديها العمال ! ومن العجيب أنه استطاع أن ينجو ، فهل كان ذلك لانه أجاد التنكر أم أنهم عرفوا حقيقته ولكنهم أغضوا النظر عنه ؟

لا أحد يستطيع أن يقطع برأى فى ذلك !

تصفية الماضى

فى صبيحة ١٢ ديسمبر ١٨٥١ ، نزل من القطار فى محطة بروكسل العامل « فرمان لانفان » (١) فاستقبلته على الرصيف مدام لوتيرو زوجة الصحفى الفرنسى المشهور وصديقة جولييت درووية ، وكانت هذه قد أخطرتها سلفا بموعد وصول حبيبها الشاعر ، ورافقته الى مساكن مفروشة متواضعة ، فذهبت معه أولا الى فندق لمبورج ، ثم الى فندق الباب الاخضر فاستقر بهذا الاخير .. وهكذا بدأت فترة المنفى

وفى الرابع عشر من ديسمبر ، كتب هوجو الى اديل يقول : « اننى هنا أعيش عيشة الرهبان ، فعندى سرير فى حجم اليد ، ومقعدان من القش فى غرفة بلا مدفأة .. ويبلغ مجموع نفقاتى فى اليوم ثلاثة فرنكات وربع الفرنك ويتضمن ذلك كل شىء ... »

ووصلت جولييت قادمة من باريس فى نفس اليوم ، حاملة معها كل مخطوطات عشيقها المنفى ، وكان فى انتظارها على المحطة الى جوار حظيرة الجمرك . وكانت جولييت تعرف حينئذ أنها محاطة بهالة من الود والتقدير نظرا لاخلاصها

(١) الاسم المستعار الذى سافر به هوجو

المشبع بالبطولة والتضحية . وها هى ذى قد تخلصت من مضايقات الاسرة المعادية لها ، فاعتقدت أخيرا أنها اكتسبت ما تستحق عليه أن يرد اليها اعتبارها فكتبت اليه غداة وصولها تقول : « اذن فصحيح أننى امرأة سعيدة حقا ومباركة ، وأن لى الحق فى أن أعيش فى ضوء الشمس ، شمس الحب والاخلاص .. »

ولكن .. كلا ! لم يكن ذلك صحيحا لسوء حظ جولييت ، اذ كان هناك « بروتوكول » للمنفى ، ولم يكن فيكتور هوجو يستطيع أن يقيم مع عشيقة له ، وهكذا اضطرت الى أن تذهب لتعيش وحدها فى بيت الصحفى لوتيرو وأسرته بشارع الامير وهى خاضعةمستسلمة ومجروحةالشعور . وماكادت تستقر هناك حتى كتبت الى هوجو رسالةتقسم له فيها أنها سوف تحتفظ بالعلاقة التى بينهما فى الحدود التى يفرضها عليها مهما كانت ضيقة محدودة ، وتقول له أيضا : « لا تضح بشىء من أجلى ان كان ذلك يترك فى نفسك أى ندم أو أسف، فحياتى ومماتى وكل شىء هو ملك لك أنت .. اننى أعدك يا حبيبى الوحيد بألا أترك نفسى أبدا بعد ذلك أتردى فى هذه الشكاوى المرة .. اننى أريد أن أكون لك صديقة حنونا تثق بها ، ومخلصة بملء شجاعة الرجل وكل رعاية الام ، وبلا أدنى بحث عن مصلحة أو نفع .. » ترى هل هناك بين الزوجات من تصل تضحيتها لزوجها الى هذا الحد ؟!

وكان على جولييت فى الايام الاولى ، أن تكتب ما كان يمليه عليها الشاعر العظيم الذى بدا وقتئذ كأن غضبا مقدسا كان يدفعه ويثير ثائرته ، فيحاول أن يعبر عنه وهو مصمم على

أن يصبح رجل الواجب والضمير الغاضب من أجل الشعب، الذم يرى لزاما عليه أن يكتب قصة حقيقية لتلك الايام المؤلمة ، فبدأ يؤلف كتابه « قصة جريمة » منذ اليوم التالى لوصوله الى بلجيكا مباشرة . وكان المنفيون يتوافدون تباعا على مدينة بروكسل يحملون معهم آخر الأنباء ، وكانت زوجته اديل ترسل اليه الوثائق والكتيبات من باريس ، وكان يتصل بها تحت أسماء مستعارة وعلى عناوين أخرى غير عنوانها الحقيقى ، كما أن الكسندر دوماس الذى كان كثير التنقل والسفر بين باريس وبروكسل قد أحضر الى صديقة الشاعر عددا من الخطابات

وكان هوجو وقتئذ لايزال يوصى زوجته وأولاده بالاقتصاد معتقدا أنه مفلس ، اذ لم يكن يخامره شك فى أن « السيد بونابرت » (١) لابد أن يكون قد أدرج اسمه فى القائمة الرسمية للمنفيين ، وان أملاكه يمكن أن تصادر ويحجز على أثاث بيته بباريس فى أية لحظة .. لكن الايام ما لبثت أن كذبت ما كان يتوقعه ، فقد ترك هوجو وشأنه وقبضت اديل مستحقات زوجها من جمعية المؤلفين ومرتبه فى المعهد دون أن تلاقى صعوبة ما ، فقد كانت حكومة فرنسا فى ذلك الوقت لا تريد أن تثير على نفسها سخرية الناس باضطهادها لشاعر عظيم ، بل أن مدام هوجو قد لاقت كل التسهيلات الممكنة لتنقل الى زوجها سندات حكومية كان يملكها قيمتها ثلاثمائة ألف من الفرنكات كان قد حولها بسرعة ، فى لباقة رب الاسرة

(١) الملك لويس نابليون ، وهكذا كان هوجو يشير اليه على الدوام

الحــذر وحرص الرأســمالى الذكى ، الى اسـهم فى البنك البلجيكى

. ومع ذلك فلم يمنع هذا كله هوجو من متابعة الكتــابة ، وأرسل الى زوجته يقول : اننا فقراء ، ويجب علينا أن نمر بكرامة فى طريق ضيق قد ينتهى بسرعة ولكنه أيضا قد يدوم طويلا .. اننى لا أجد سوى أحذيتى وملابسى القــــديمة ، وهذا أمر بسيط . وأنت تحتملين الحرمان بل الالام ، وذلك أقل بساطة بالنسبة اليك بما أنك زوجة وأم ، ولكنك تفعلين ذلك بسعادة وعظمة .. »

وابتسم الناس حينذاك لهذا البؤس الذى كان يرقد على كومة من الذهب ، كما ابتسموا من « فقر » صاحب الاسهم وغرفته العارية الباردة ، ومن الفرنكات الخمسة والعشرين التى كان يمنحها لابنه فرانسوا فيكتور (١) فى الشهر كمصروف جيب .. فمن قائل ان الشاعر العظيم كان يحن الى حيــاة الفقر والحرمان ، فكان يطيب له أن يحرم نفسه من حيــاة الترف والرفاهية التى لم يألفها أيام شبابه ولم يقبلها قلبه بعد ذلك أبدا .. ومن قائل انه كان يريد أن يعيش على دخله فقط حرصا منه على أن يترك رأس المال سليما لا يمس ، وذلك كى يضمن بعــد وفاته حيــاة طيبة لزوجته وأولاده ، وكان من رأيه أنهم لا يستطيعون كسب حياتهم ..

وليس هناك شك فى أن هوجو كان لديه ميل غريزى الى الاقتصاد ، وحرص على أن يحتفظ على الدوام بفائض كبير

---

(١) فرانسوا فيكتور ، وليوبولدين « ديدين » الابنة الكبرى ، و«ديديه» الابنة الصغرى . أما شارل فقد لحق بوالده فى بروكسل

فى ميزانيته .. وعنــدى أن نزواته العــاطفية وحرصه على الاحتفاظ بعلاقات غرامية مع نساء كثيرات كان لا يستطيع أن يقاوم سحر جمالهن ، كانت تغذى هذا الميل الراسب فى أعماق نفسه منذ شبابه الاول

ففى الوقت الذى كانت فيه اديل تتلقى منه وعظا دائمــا بالاقتصاد فى النفقات ، كان عليها أن تستمر فى معونتها لليونى دونيه ، اذ كتب اليها زوجها من بروكسل يقــول : « افعلى كل ما فى وسعك من أجل مدام دونيه .. اننى تأثرت كثيرا من الكلمات الرقيقة الطيبة حقــا التى تقولينها لى فى هــذا الشأن » . وكذلك كان هوجو من ناحية أخــرى يراســل مباشرة مدام بريا التى كانت هى الاخــرى تطالب بالمعونة . وهكذا كانت هذه الشــقراء « ذات العيون الناعسة » تفلت من جمال الوعظ بالاقتصاد ، فكانت تتسلم وحدها من المال من عشيقها المنفى أكثر مماكان يتسلمه أولاده الثلاثةالمقيمون مع أمهم فى باريس !

والواقع أن اديل كانت تســلك وقتئــذ وهى فى باريس سلوكا جديرا بموقفها كزوجة رجل فى المنفى ، وكانت تفخر بدور زوجها السياسى أكثر مما كانت تفخر بمجده الادبى . وكان ثمـــة بعض أصدقاء مخـــلصين يزورونها فى بيتها ويستفسرون عنها وعنه ، ويثنون على شجاعته التى قاد بها الانقلاب ضد الملكية فى الشــوارع . وقــد كتبت اديل الى فيكتور هوجو تقول :

« ان الجمهوريين مدهوشون .. انهم كانوا يقولون : ان هوجو قد سجل تقدما بغير شك ، وهو خطيب عظيم ، ولكن .. ترى أيكون رجل عمل اذا آن الاوان ؟. وهناك بعض نقط

كانوا يشكون فيك بشأنها . والآن قد أفحمتهم تماما وانت تحت الاختبار ، فانهم يأسفون لانهم شكوا فيك .. »

وكذلك كانت اديل تجد العـزاء فى الموقف النبيـل ، اذ كتبت تقول : « اننى أشعر بحياتى تصبح مظلمة وبأن قلبى يقاسى بعض الشىء بسبب نفيك ، ومن جراء سجن أبنـائى وأصدقائى ، ولكنى أشعر بالرضا والاعتزاز بك وبهم .. » هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد كان وجودها حينئذ فى باريس يمكنها من أن ترشد زوجها وتحيطه علمـا بتطور الحوادث ومجريات الامور ، فتسجل هكذا لفترة من الوقت تفوقا لذيذا طالما تاقت نفسها اليه على هـذا الزوج العملاق ذى النفس المسيطرة

والواقع أن المعلومات التى كانت ترسـلها اليه كثـيرا ما كانت تفتقر الى الدقة أو خاطئة تماما .. فتارة كانت تقول له ان العهد سيكون قصير الامد ، وأخرى أن لويس نابليون كان يتأهب لغزو بلجيكا والقبض على المنفيين ، كمـا كانت تقول له : « لن يرتفع صوت واحد فى فرنسـا ، ولن يأتى أحد لمعاونتك ... »

كانت اديل تنصح زوجها اذن بأن يلجأ الى لندن ، ولكنه كان يعارض فى ذلك بحجة جهله باللغة بالانجليزية ، ويقترح عليها أن ينتقل الى الجـزر الانجليـزية النورماندية فى بحر المانش حيث يتكلم السكان على الاقل اللغة الفرنسية ..

ولسنا بحاجة الى أن نقرر أن اديل كانت ثائرة ، فقـد كانت على علم بوجود جولييت الى جوار زوجها فى بروكسل ، ولكنها كانت تعرف كذلك أنه كان صلبا لا يلين فى هـذا الموضـوع بالذات ، فكتب اليها يقـول : « ان ما قاله ابيل لموريس غير

منطقي . والمرأة التي يتحدث عنها موجودة هنا حقا ، ولكنها أنقذت حياتي وسوف تعرفين ذلك كله فيما بعد ، أو لولاها لقبض علي ولضعت في أكثر الايام ظلاما .. انها تخلص لي منذ عشرين عاما اخلاصا تاما ومطلقا لم يكذب أبدا . وفوق هذا ، فهي تضحي بكل شيء وتخضع خضوعا عميقا لكل شيء .. ولولاها لكنت في هذه الساعة في عداد الموتى أو منفيا في مكان بعيد ، واني أقول لك هذا كما أقوله أمام الله »

وبعد هذا الخطاب ، كفت اديل المسكينة عن لوم زوجها بشأن موقفه من جولييت ، وفوق هذا فانها كانت ترى من واجبها ـ وقد عينت كاتمة للسر ـ أن تخفي كثيرا من الاشياء والاوراق التي كان لا ينبغي اظهارها ، منها خطابات خاصة بزوجها كانت في درج « الكمودينو » بغرفته الخاصة ، وكان عددها من الكثرة بحيث لقيت اديل مقاومة كبيرة لما فتحته !

ولم تبال اديل بكل تلك البراهين الدالة على عدم الاخلاص وعلى الخيانة الزوجية ، بقدر ما أسفت لان هذا الدرج لم يكن مغلقا بالمفتاح ... وكتبت الى زوجها تقول له في تسامح: « أرى من واجبي أن أحذرك ، اذ ربما استطاع الخدم أن يعثروا على هذه الخطابات وأن يقرأوها لمن يريدون ، وامل مع ذلك الا يكون هذا قد حدث لان الدرج لم يكن ظاهرا تماما »

وكان أولادها لا يزالون بالنسبة اليها مجالا يثير القلق ، فأديل « ديديه » ، التي كانت قد بلغت وقتئذ الثانية والعشرين ، وهي سن كان ينبغي فيها أن تتزوج ، قد لجأت الى الموسيقى وانطوت على نفسها لتغرق امالها في عالم من

الاحـلام المؤلمة . وفى هـذا كتب فيكتور هوجو الى زوجته يقول : « قولى لابنتى الصغيرة اديل اننى لا اريد أن يشحب لونها ، ولا أن يصيبها الهـزال .. فلتهدأ ، فان المسـتقبل لذوى الصحة الجيـدة .. » وكانت ديديه فى ذلك الوقت تكتب مذكراتها الخاصة ، ولو أن أباها قدر له أن يطلع على هذه المذكرات لقرأ فيها ما يلى : « ان مسيو سانت بوف قد عاد الى التردد على بيتنا ، وهو يتحدث فيطيـل الحديث ، وسوف يبعث الينا بمقالة مسيو دى سالفاندى عن جرزيه »

أما ابنها شارل البدين ، فكان قد لحق بوالده فى بروكسل حيث أقاما معا فى غرفتين بالمنزل رقم ٢٧ بالميـدان الكبير ، تطلان على منظر رائع من المنازل المذهبة ذات الزخارف . وهناك ، عكف هوجو على العمل بذلك المزيج من النشـاط والمتعة الذى تمـدنا به العواطف القوية . وفى شهر مايو ، ترك فكرة انهـاء كتـابه « تاريخ يوم ٢ ديسـمبر » اذ كان ينقصه الكثير من المعـلومات ، وقرر أن ينشر على وجـه الاستعجال كتاب هجاء صغير بعنوان : «نابليون الصغير» (١) كتبه بسرعة كبيرة فجاء ارتجالا ثائرا واتهاما على الطريقـة اللاتينية القديمة ، يجمع بين عنف أسـلوب « شيشرون » وقوة « تاكيتوس » وشاعرية « جوفينال » ، وتتراوح لهجته بين زجر الكتب المقدسة وفكاهة « سويفت » المرعبة

***

وأصبح من الواضح بعد نشر كتاب « نابليون الصغير » فى بلجيكا أن هناك خطرا على أسرة هوجو وممتلكاته التى تركها

(١) Napoléon Le petit

فى فرنسا ، خاصة أن حكومتها كانت تعلن وقتئذ عن اصدار قانون بشأن جرائم الصحافة والنشر التى يرتكبها الفرنسيون فى الخارج يتضمن عقوبة الغرامة والمصادرة ، كما كان هناك من ناحية أخرى قانون فى بلجيكا يحرم مهاجمة رئيس دولة صديقة . ولهذا ، استقر رأى هوجو على استدعاء كل أفراد أسرته للاقامة معه ، اما فى بروكسل اذا قبل البلجيكيون ايواءه بعد أن نشر هذا الكتاب العنيف ، واما فى جزيرة جرزى (١) فى بحر المانش ، مفكرا أولا فى أن ينقل اليها أثاث منزله الموجود فى باريس ، اذ كان شديد التعلق بالتحف والنفائس التى كان قد انتقاها بشغف وعناية من عند تجار التحف والعاديات ، ولكن اديل رأت أن هذه الفكرة غير معقولة ، وكتبت تقول له فى هذا الشأن : « ولماذا نقيم فى الخارج بصفة دائمة ؟ ان علينا أن نستطيع أن نرفع قدمنا من ساعة الى أخرى ، فها هى ذى الاحداث تضطرنا الى الفرار من مأوانا مرتين ، ويحتمل كثيرا أن تطردنا مرة ثالثة . ولو أننا نقلنا أثاث بيتنا الى جزيرة جرزى ، لتكبدنا فى تغليفه نفقات باهظة .. ولعلك تذكر أنه كان لدينا ما يحمل ثمانية عشر عربة لنقل متاعنا ، وأنه قد تضاعف منذ ذلك الحين . »

ونصحت اديل زوجها بالتنازل عن عقد ايجار بيتها بشارع دى لاتور دوفرنى فى باريس ، وبيع الاثاث بالمزاد العلنى بما فى ذلك « الاثاث القوطى البديع » والاطقم والتحف والمكتبة وما تحتويه من كتب ومن بينها كتب «رونسار» وحتى ذكرى سانت بوف لم تنج هى الاخرى من هذه الرغبة العارمة فى

(1) Jersey

تصفية الماضى بحلوه ومره !

وهكذا كلفت اديل بوصفها ربة العائلة مؤقتا باعداد الترتيبات المتعلقة ببيع الاثاث ونشر الاعلانات اللازمة فى الصحف ثم جمع كل النقد السائل . وكان عليها بعد ذلك أن تضع نفسها مع أولادها فى مكان أمين ، قبل أن يلقى زوجها المتآمر قنبلته فينشر فى بلجيكا كتابه « نابليون الصغير » الذى ارتجله فى مدى شهر واحد ، وهى لحظة كان ينتظرها، فى صبر نافد وشغف عظيم .

وتم كل شىء كما أراد هوجو .. وعلى الرغم من أن بيع المتاع بالمزاد العلنى ، كان يمكن أن يكون بالنسبة لهوجو مصدر ألم عميق ، فقد جعلت منه السعادة التى كانت تثيرها التضحية العلنية فى نفسه شيئا مقدسا ، بينما كانت اديل تشتق لذة كبرى من خلال الشعور بالانتقام ، وقد استطاعت أخيرا أن تتهكم عليه بعض الشىء ، وأن تبتسم منتصرة وهى تبرهن له على أن التمسك بالاقتصاد التام أمر له مساوئه

والواقع أن آديل طالما نظرت فى ازدراء الى كلّ تلك التحف « والاشياء القديمة » التى كان هوجو يحرص على شرائها من شارع دى لاب وهو فى رفقة جولييت. ومع ذلك ، فقد بلغت حصيلة البيع خمسة عشر الفا من الفرنكات (١) ، اذ تهافت الهواة والاصدقاء يوم البيع(٢) بأى ثمن على اقتناء الاشياء التى كانت تزين مكتب الشاعر العظيم

وفى مساء اليوم نفسه ، توجه الكاتب الصحفى جول جانان

---

(١) أى ما يعادل نحو ثلاثة ملايين من الفرنكات بحسب النقد الفرنسى عام ١٩٥٣ قبل خفض قيمة الفرنك

(٢) كان ذلك فى يوم الاربعاء التاسع من يونيو عام ١٨٥٢

تحت سماء مقمرة صافية الى بيت فيكتور هوجو بشارع دى لاتور دوفرنى ، وكتب اليه فى اليوم التالى يقول : « كان قد خيم حول بيتك صمت كبير ! وكانت نجمة هى نجمتك تبعث ضوءها العميق على الحديقة الصغيرة التى كنت تنزل اليها أثناء الليل .. وكان بالنافذة المفتوحة ظل شبح أبيض أو صورة ملتفة ساكنة كانت تتأمل فى صمت وهدوء المدينة التى كان يجب أن تغادرها فى اليوم التالى ! واعتقد تماما أنها كانت هى ابنتك التى تحلم هكذا . وفى النافذة المغلقة ، كانت هناك زوجتك تتبادل الحديث مع ابنك بصوت خفيض ، وكان حديثهما هادئا وحزينا . كان حديثا لا يمكن سماعه ، ولكن كان من السهل فهمه . لقد كانا يودعان هذا العش اللطيف الذى كان يضم مجد الاب .. آه ! من ذا الذى كان يستطيع ان يقول لنا أيام المعارك الادبية العظيمة حين كنا نحيى مدام هوجو كأنها ملكة .. من ذا الذى كان يستطيع ان يقول لنا اننا سنفقدها وأنها سترحل الى المنفى ؟ »

ذلك أن القرار كان قد اتخذ ، وأرسل هوجو فى اليوم الخامس والعشرين من يوليو يتعجل زوجته أن ترحل مباشرة الى بلدة سانت هيليه فى جزيرة جرزى ، ورحل هو نفسه الى هناك فى يوم أول أغسطس ومعه ابنه شارل .. اذ لم يشأ أن يحمل حكومة بلجيكا عبء كتابه « نابليون الصغير » ، فسبق برحيله قانون « فايدر » الذى كان سيطرد بمقتضاه من الاراضى البلجيكية

ولم تكن جولييت ترى حبيبها فى بروكسل أكثر مما كانت تراه فى باريس ، فكانت تعيش على مقربة منه قانعة بأن ترسل اليه خادمتها سوزان حاملة أطباقا لذيذة الى مسكنه

بالميدان الكبير . لقد كانت تعبد ذكريات الايام الجميلة ، ولكنها أصبحت تسائل نفسها الآن قائلة : « ماجدوى المحافظة على تقاليد الحب الاول مادام لم يعد ثمة حب أول ؟ يا للاسف ! اذ لم يعد هناك سوى الواجبات والشفقة واحترام الانسان ؟ .. أليس من الافضل اذن أن أترك كل تلك الامور العاطفية الصبيانية التى لم تعد تلائم أبداً شعرى الابيض ؟ ان هناك انواعا من مساحيق الزينة تصبح غير ملائمة بعد سن معينة ... »

وها هى ذى تصبح فى سن السادسة والاربعين قبل الاوان، اذ أخذ جسمها يسمن ويثقل وأصبحت تشعر بأنه فى تقهقر مستمر ، فكانت تبذل جهدا مؤثرا فى سبيل التنازل عن نداء العاطفة ومقاومة مطالب البدن . وكان هوجو من ناحية أخرى يضحى بها فى قسوة لكى يظهر بالمظهر الذى يليق بعظيم فى المنفى فكان يمنعها من أن تذهب لتزوره فى مسكنه فى الوقت الذى كان يستقبل فيه أفواجا من الفضوليين والذين لاعمل لهم ، ومن غير هؤلاء وهؤلاء ممن لايعنيهم أمره ، فكتبت اليه تقول : « انك تلاحظ حتى مافى انكارك لشخصى من القسوة والظلم ، فأنت تعنى بكرامتك أكثر مما ينبغى على حساب قلبى المسكين ! »

والواقع أن عشيقها كان وهو فى بروكسل « يضاعف من طهارته » ، وكان يزداد على الايام امعانا فى هذا الاعتدال الذى كان قد درج عليه معها سنوات .. ولكن ، ترى هل كان يلزم نفس هذا الاعتدال أيضا مع النساء اللائى يصغرنها فى السن ؟

لقد كان لدى جولييت من الاسباب ما يدفعها الى الشك

فى ذلك ، فأرسلت اليه خطابا تقول فيـــه : « لتكن لديك الشجاعة مرة واحدة فتعلن خيانتك الجسمية والمعنوية ·· اننى أذكر الوقت الذى كنت لاتحب فيه سواى ، كما أذكر أيضـــا ذلك اليوم الذى اتخذت فيه من صحتك عذرا لانفصال جسدى ·· لقد كنت تعبد امرأة أخرى ·· » وأثناء فترات الانتظـار الطويلة ، كانت العشيقة الخادمة تنسخ قصة يوم ٢ديسمبر، وترتق جوارب « رجلها الصغير » ، وتنظر طويلا الى السحب وهى تمر فى السماء !

ومهما يكن من أمر ، فقد جنبها على الاقل مرارة الاذلال بأن أعفاها من رؤية صديقته ليونى دونيه التى أرادت أن تلحق به فى بروكسل فى يناير عام ١٨٥٢ ،اذ كتب الى زوجته وحليفته يقول : « انها تنوى السفر يوم ٢٤ يناير ! فاذهبى للقائها على الفور واحمليها على أن تلزم جانب التعقل ، فأى اجراء طائش فى الوقت الحاضر قد يؤدى الى أوخـــم العواقب ·· ان كل العيون اليوم مثبتة على ، وأنا أعيش أمام الجمهور عيشة تقشف قوامها العمل والحرمان . ومن هنا كان الاحترام العــام الذى أقابل به حتى فى الشوارع ·· ولاينبغى أن يتزحزح أى شىء فى هذا الموقف . فقولى لها هذا كله ، وعامليها فى حنان ·· لاتريها هذا بل أحرقيه فى الحال ، وقولى لها اننى سأكتب اليها على العنوان الذى أعطته لى ·· احترسى من الاعمـــال الطائشة ·· »

وتكفلت آديل بهذا كله وبكثير غيره ·· وتكفلت بكل شىء وقد أخذ فخرها يزداد بدورها هذا الذى تضخم فجأة وردت على زوجها لتقول له : « كن مطمئنا تماما فانى ذاهبة الى مدام دونيه فى الحال ، وأنا أكفل لك أنها لن تســافر ·· اننى ساهرة ياصديقى الكبير العزيز فاعمل فى سلام وكن هادئا »


عظيم فى المنفى

عظيم فى المنفى

فى أغسطس من عام ١٨٥٢ ، وصل الى جزيرة جرزى أول فوج من المغتربين مؤلف من مدام فيكتور هوجو وابنتها آديل (ديديه) وأوجيست فاكيرى ، فحسبوا لاول وهلة أن بلدة سانت هيلييه التى تحرقها الشمس تشبه الى حد كبير جزيرة سانت هيلانة • وبعد ذلك بيومين ، لحق بهم فيكتور هوجو وابنه شارل فى « فندق التفـــاحة الذهبيـــة » ، وكان فى استقبالهما بالميناء عدد كبير من المنفيين راحوا يحيون الكاتب الكبير فى حرارة وحماس ، وقد اختلطوا بسكان المدينة ••

ولاول مرة منذ ثمانية أشهر ، وقعت عينا آديل على زوجها المنفى وهو ينزل من السفينة ومعه ابنه شارل ، فراعهما منظر الاثنين : فقد سمن فيكتور هوجو كثيراً ، وكذلك ابنها الحبيب، وتغير مظهره فأصبح يهمل عمداً فى هندامه ، وتحـول رجل المجتمع الانيق المصقول المصفف الشعر الى رجل عمل خشن أقرب الى الصناع منه الى عظماء الرجال، وكان الحزن يمتزج بالصرامة والوقار فى قسمات وجهه المعذب المكدود ، ويلمع فى عينيه المفتوحتين بريق لم تر فيهما مثله من قبل •• كان يجعله كانســـان تمـــر به رؤيا ، ولكن لم تنقض لحظات حتى ذهبت عنها الدهشة وهدأ روعها وقد لاحظت أن زوجها قد عاد بسرعة الى مرحه ومنطقه الواقعى

وبدت الجزيرة لافراد الاسرة أقل وحشة ، حـــين طوفوا

بأرجائهـــا وعرفوا معالمها ، وكانت تشـــبه حديقة كبيرة شديدة الخضرة انتشرت عليها بيوت نظيفة يترامى البحر من تحت سفحها على مدى البصر

وانقسم الرأى على الفور فى محيط الاسرة بشأن اختيار المسكن ، فكان من رأى الابنة ديديه (آديل الصغيرة) أن تظل قريبة من بلدة سانت هيلييه ، بينماكان شقيقها شارل يتمنى أن يعيش فى مكان مرتفع ـ أما هوجو الاب فقد ظل متمسكا بفكرة الاقامة على شاطىء البحر • وانتصر رأيه من النهاية ، فاستأجر بيتا منعزلا تماما على الشـــاطىء يدعى « البيت ذو الشرفة البحرية » وهو بناء مكعب ثقيل ذو زوايا قائمة ويبدو شكله كالقبر

أما جولييت دروويه ، فقد وصلت من بلجيكا على سفينـة أخرى واستأجرت لنفسها شقة صغيرة فى بيت خشبى يقال له « نلسن هول » لان هذا كان هو العرف المتبع ، ولان آديل قد أبدت رغبتها فى ذلك . وفى اليوم العاشر من أغسطس كتبت الى هوجو تقول : « سوف نرى ما اذا كان منظر المحيط سيثير عندك الوحى أكثر من الميدان الكبير فى بروكســـل ، وسوف نرى أيضا ما اذا كنت ستحتفل بمسكنى الخشبى أكثر مما كنت تفعل بغرفتى فى ممر سان هوبير (١) »

وهكذا استقرت هذه الجماعة الصغيرة فى جـزيرة المنفى حيث كانت حياتها مرتبطة بعقل وقلم • ولقـــد كان هوجو يشعر منذ اللحظة التى وطأت قدماه فيها أرض الجزيرة انه كان عليه أن ينشر ، ولكن . . ماذا ينشر ؟ ديوان التأملات (٢)

---

(١) فى بروكســـل حيث أقامت مع أسرة صديقتهـــا مدام لوتيرو زوجة الصحفى المشهور .

(٢) Les Contemplations

وهو عبارة عن مجموعـــه من قصـــائد حب وأحزان تدور موضوعاتها حول جولييت وابنته الميتة «ديدين» ؟ ترى أكان الوقت مواتيا فى خضم هذا الصراع السياسى لان يقـــدم للجمهور أشعارا تدور حول شخصه ؟

كان من رأى هوجو أن الوقت غير ملائم ، وكذلك قـــرر الناشر هتزل لما أراد الشاعر أن يسترشد برأيه . ومن ثم فقد استقر رأيه على أن يتمسك فى أيام الخصومة والغضب بنفس القريحة التى أملت عليه كتاب « نابليون الصغير » الذى كان يدخل فرنسا خلسة على شكل ملازم مطبوعة على ورق خفيف للغاية ، فقوبل فى كل مكان بحماس منقطع النظير ، وطبعت منه مليون نسخة فى كل أنحاء العالم ، وترجم الى الانجليزية والاسبانية

وكان على هوجو أن يواصل الكتابة ، ولكن بالشعر فى هذه المرة على عادته فى أكثر مؤلفاته ، فكان هذا الشاعر البليغ الثائر يرى آناء الليل وأطراف النهار وهو يهيم كشبح مأخوذ على شواطىء جرزى وفوق الربى والصخور . وما أن حل شهر ديسمبر من عام ١٨٥٢ حتى كان يمسك فى يده بكتاب فريد من نوعه فى الأدب الفرنسى هو ديوان « العقاب » (١) الذى فرغ منه ورقة ورقة فى الاسابيع الاولى من عام ١٨٥٣ ، وهو ديوان يذكرنا بكتاب «المآسى» (٢) للشاعر دوبينييه، ولكن هوجو قد تفوق عليه بقوة ضرباته وجمال لفته وجمال قوافيه ، كما تفوق عليه بعظمة السخرية فى أسلوبه : وخاصة بلهجـة الملحمة التى صاغ بها الكتاب ، وفيه يقول الشاعر انه واثق

(١) Le Châtiment
(٢) Le magique d'Aubigne

من أن الحق هو الذى سينتصر فى النهاية ، وأن ما يلمحه وهو نائم على شاطىء المحيط كان « ملاك الحرية » :

« آه ! أنظروا ! ان الليل ينقشع »
« عن العالم الذى يتحرر .. »
« والامم التى بلغت رشدها .. »
« تفتح فى زرقة السماء الجامدة .. »
« أجنحة السلام الشاسعة ! »

***

« ألا أيها الرداء الابيض بعد العربدة !.. »
« يا للنصر بعد الآلام !.. »
« ان العمل يطنطن فى الاكوار .. »
« وتضحك السماء .. والطيور تغرد »
« فى شجر الشوك الذى ازدهر بالورود »

***

« هناك نقطة تلمع فى آخر السماوات »
« أنظروا .. انها تكبر وتسطع »
« انك لست الى الآن سوى الشرر »
« وغداً تصبحين الشمس .. »

***

« وفى انتظار ذلك يجب على أن أصمد .. »
« انى أقبل المنفى المر ، حتى ولو لم تكن له نهاية .. »
« دون أن أحاول أن أعرف ، ودون أن الاحظ .. »
« اذا كان شخص آخر قد انحنى ، وكنا نظن أنه أكثر ثباتا .. »

« فاذا كان الكثيرون يرحلون ممن كان ينبغي أن يمكثوا . . »

« واذا لم نعد سوى ألف فانني من بينهم .. وحتى اذا لم يكونوا »

« سوى مائة فلا زلت أتحدى اسيللا »

« وان بقي عشرة ، فسوف أكون عاشرهم »

« فاذا لم يبقَ سوى رجل واحد فسوف يكون أنا »

***

وهكذا كان فيكتور هوجو يصهر الغضب والضغينة ويصبهما في أبيات منظومة وهو مستند الى صخور الشاطىء يتأمل البحر طويلا بنظرات شاردة . ولم يبلغ انتاجه من الروعة مثلما كان عليه في تلك الفترة من حياته ، ولا عمل أبدا بمثل هذه الهمة التي لاتفتر ، والقريحة النفاذة الصافية . ولهذا فان الوقت كان يمر بسرعة بالنسبة اليه ، واما بالنسبة لافراد أسرته فلم يكن المنفى يمدهم بمثل هذه القوة

فآديل الزوجة والام ، التي حرمت من مملكتها الباريسية ، تقبل في غير حماس أو سرور على تدبير شئون البيت التي « لامجد فيها » ، فأخذت تحاول أن تكتب كتابا بعنوان : «فيكتور هوجو كما يعرفه شخص شاهد حياته» ولم تكن آديل قد لمعت ككاتبة منذ أن كتبت أيام خطوبتها رسائل الحب الى خطيبها الشاب ، ولكنها قد سجلت الآن بعض التقدم من جراء احتكاكها برجال الادب والشعراء والندوات التي كانت تحضرها في المحافل والصالونات . ثم أن زوجها كان هناك ، الى جوارها ، وهو نموذج يحتذى وحجة في هذا الميدان .ومع

ذلك ، فقد لاقت آديل فى البدء صعوبة كبيرة ، وهى تعبر عن ذلك حين تقول : ان ما أكتبه عن زوجى يسير ببطء ، فأنا لست كاتبة ٠٠ والمذكرات ليست شيئا ، ولكن حينما يكون الامر متعلقا بالتحرير كما يقولون فان فكرى يدور كثيراً ٠٠ »

أما شارل هوجو وأجيست فاكيرى ، وكلاهما كان شاعرا مرتجلا وكثير الكلام طلق اللسان ، فقد كانا يلمعان أمام مجموعة محدودة العدد من المستمعين ، وكانت هواية التصوير الفوتغرافى تستهلك من وقتهما قدرا لا بأس به ، والتقطت آلاتهما البدائية « للوالد العظيم » عشرات من الصور كان لها الفضل فى أن تثبت لنا مظهر الشاعر فى ذلك الوقت ، وأن تنقله الينا عبر السنين ، وهو — على حد تعبير بول كلوديل — « مظهر محزن يفرض نفسه على الآخرين ، ولكن تكمن من ورائه روح تتألم »

وأما آديل الصغيرة (ديديه) التى كانت وقتئذ فتاة فى السادسة والعشرين ، فقد كانت تحتمل حياة المنفى فى مشقة كبيرة ، وتضم بين جنبيها نفسا معذبة ، فكانت أكثر الوقت مكتئبة شاردة النظر ، وكانت تدفن أحزانها فى الموسيقى من وقت لآخر أو تحلم بحب مستحيل

لم يبق أمامنا من الجماعة الصغيرة الا جولييت ، وكان وجودها على مقربة من الاسرة يزيدها بؤسا ويشقيها الى حد لم تعرفه من قبل ٠٠ انها كانت تلمح حبيبها من النافذة ، ولكن كان محرما عليها أن تكلمه حين يكون مع زوجته ٠ وكانت هى من ناحية أخرى لاتفكر فى ذلك ، وكان يمنعها من أن تفعله وخز ضمير لاتستطيع أن تتغلب عليه ٠٠ ولكنها لما كانت ترى مدام فيكتور هوجو تمر مرتدية ثوبا من الحرير الجميل

ومتأبطة ذراع زوجها ، فانها كانت تتألم وهى تقارن بين هذا الترف وبين ثيابها المهلهلة . وكانت جولييت لاتكره جزيرة جرزى لانها نشأت فى مقاطعة بريتانى المطلة على البحر فكانت تجد فيها مراتع طفولتها ، ولكنها كانت لاتحب أن تظل دائما وحدها هكذا فى « نلسون هول » بين همومها ونسخ مخطوطات عشيقها الاديب . وقد كتبت اليه وقتئذ تقول : « تستطيع أن تخرج معى لو أنك أردت ذلك بدلا من أن تقف الى مالا نهاية أمام آلة التصوير .. »

***

وكانت أيام جرزى بالنسبة لفيكتور هوجو أيام تأمل وعمل وفترة راحة وسعادة ، فلئن كان سوء الحظ قد انتزع الشاعر من محيطه ووطنه ، فقد أتاح له فرصة نادرة عاد فيها الى نفسه ، فلم تعد هناك جلسات أكاديمية ولا مناقشات فى الجمعيات ، ولا نساء يطمعن فى وقته وفى قواه . والواقع أن هوجو لم يسبق له أن كتب قط بمثل هذه الحرية ، وبنفس تلك القوة والسهولة ، فأضاف فى غير جهد وهو فى جزيرة جرزى جزءا آخر الى ديوانه « التأملات » الذى كانت قصائده الرائعة الموجهة الى ابنته ليوبولدين والى جولييت درورويه تختلط بقصائد أخرى فلسفية صب فيها مذهبه فى الحياة . وكتب فى الفترة ما بين ١٨٥٣ - ١٨٥٦ أهم القصائد اللاهوتية فى التأملات والقصيدتين الكبيرتين : « نهاية الشيطان » ، و « الله » ، وكان من الممكن أن تخرج الى الوجود تحف أخرى نادرة لولا أن وقع حادث جلل أوقف انتاج الشاعر الاديب فترة من الوقت وأدى الى ابعاده عن الجزيرة

فى جزيرة جيرنيزى

لسنا بحاجة الى أن نقرر أن ظروف اللاجىء السياسى تزداد صعوبة اذا حدث تقارب بين بلده الاصلى والبلد الذى ينفى اليه ..

والواقع أن حكومة انجلترا ، كانت تقبل وجود هوجو فى جزيرة جرزى ، ولكنها كانت لاتتبناه . ولم تحب السلطات الانجليزية هذه المجموعة الصغيرة من الفرنسيين الثرثارين ، وهذا الشاعر الذى كان يتنقل بين زوجته وعشيقته ، وتلك النصائح التى كان يوجهها من منزل الشرفة البحرية الى لورد بالمرستون كأنها وعظ كبار القساوسة

وفى مجلس العموم البريطانى ، كان سير روبرت بيل قد لام فيكتور هوجو فى عام ١٨٥٤ فى كلمات لاتنطوى على مراعاة أو احترام ، فقال : « ان هذا الشخص لديه ضرب من الخلاف الشخصى مع الشخصية الممتازة التى وقع عليها اختيار الشعب الفرنسى لتكون ملكا له .. »

وفى عام ١٨٥٥ أصبح الخلاف حادا ، اذ توثقت علاقات المودة والصداقة بين ملكة انجلترا وامبراطور فرنسا المتحدين ضد روسيا ، وانتهت حرب القرم بزيارة قام بها نابليون الثالث للملكة فيكتوريا فى لندن ـ وكان الاستقبال فى دوفر جميلا حسن التنظيم الا من خطاب من الكاتب المنفى موجه الى

الامبراطور ، كان هذا يستطيع بسهولة حين وصوله الى دوفر أن يراه ملصقا على الجدران :

من فيكتور هوجو الى لويس بونابرت : « ماذا جئت تفعل هنا ؟ على من تحقد ؟ ومن جئت لتسب ؟ أهى انجلترا فى شعبها أم فرنسا فيمن نفى منها ؟ ... دع الحرية فى سلام وأترك المنفى هادئا ... » (١)

ولما ردت الملكة فيكتوريا الزيارة بعد ذلك للامبراطور ، هاجمها فليكس بيات (٢) بطريقة غير حاذقة ، فوجه اليهاخطابا مفتوحا نشرته صحيفة « الانسان » (٣) قال فيه : « لقد ضحيت بكل شيء : كرامة الملكة ، وتحفظ المرأة ، وغرور الارستقراطية ، وعواطفك كانجليزية ، وبالمكانة ، والجنس، والانوثة .. كل شيء حتى الحياة ، فى سبيل حب هذا الحليف .. »

وقد طرد شارل ريبرول رئيس تحرير الجريدة، والكولونيل بيانسينى مدير الادارة ، وثالث يدعى تاماس ويعمل موزعا بسيطا ، بأمر من الحكومة الانجليزية

ولم يحبذ فيكتور هوجو الخطاب الموجه الى الملكة ، ورأى أنه ينطوى على فساد قدمه المنفيون بالجزيرة الى السلطات ذات الشأن

وفى يوم ٢٧ اكتوبر ، زار نائب حاكم جزيرة جرزى فيكتور هوجو فى بيته ، وقال له فى أدب جم :

---

(١) Victor Hugo : Actes et Paroles, t. II (Pendant l'exil) p. 116

(٢) لاجىء سياسى فرنسى فى لندن

(٣) جريده عدد ١٠ اكتوبر عام ١٨٥٥

ـ انك ممنوع ياسيدى من الاقامة فى الجزيرة أنت وولديك شارل وفرانسوا فيكتور بمقتضى قرار صادر من التاج ، وقد حدد لكم القرار مهلة تنتهى فى يوم ٤ نوفمبر كى تستعدوا للرحيل ..

فقال له هوجو :

ـ حسنا ياسيدى نائب الحاكم .. تستطيع أن تنسحب لتخبر رئيسك الحاكم العام بأننا سننفذ هذا القرار ، وسيخبر به الحاكم العام رئيسة الحكومة البريطانية التى ستخبر به بدورها رئيسها السيد بونابرت !

وعبر كثير من الاحرار الانجليز عن سخطهم من هذا الاجراء فى مظاهرات عديدة ، ولكن أسرة هوجو اضطرت الى مغادرة الجزيرة لتقيم فى جزيرة جيرنيزى .. وكان رحيلها على دفعات .. فقد رحل فيكتور هوجو أولا يوم ٣١ أكتوبر ، وبصحبته فرانسوا فيكتور وجولييت وخادمتها الخاصة سوزان الطيبة القلب . وبعد ذلك بيومين لحق بهم شارل هوجو ، ثم جاء دور اديل الام واديل الابنة « ديذيه » واوجيست فاكيرى الذين لم يكن يشملهم أمر الطرد ، وكان عليهم أن يتكفلوا بنقل الاثاث . وقد غادر هؤلاء الجزيرة فيما بعد ، وهم يحملون من بين متاعهم حقيبة كبيرة ثقيلة فى قارب صغير كانت تتلقفه الامواج فى بحر هائج فتثير فى نفوسهم أشد القلق ، اذ كانت تضم مخطوطات كتبه : « التأملات » ، و « البؤساء » ، و « ونهاية الشيطان » ، و « الله » ، و « أغانى الشوارع والغابات » ، ولم يحدث قط من قبل أن كانت مثل هذه المؤلفات الخالدة عرضة هكذا للضياع

ولم يكن هوجو يملك وقت نزوله بجزيرة جيرنيزى سوى

القليل من المال ، غدا الاحتياطي المودع في بلجيكا الذي كان لا يريد أن تمسه يداه .. ذلك أنه لم يقبض شيئا من حق التأليف عن كتاب « نابليون الصغير » وديوان « العقاب » ، فهما من كتب الكفاح ، وقد بيعا سرا لصالح الذين تولوا توزيعها فقط . واستأجر الكاتب منزلا يقيم فيه لقاء ايجار شهري خوفا من أن يطرد من جديد « اذا ما أصر السيد بونابرت على ذلك » وكان البيت يطل على منظر رائع وقد كتبت آديل تقول : « اننا نرى من نوافذنا كل جزر بحر المانش والميناء الجاثم تحت أقدامنا . وفي المساء ، تحت ضوء القمر ، يكون ذلك مما يثير الاحلام .. »

واستأنف رب الاسرة العمل في الحال ، اذ لم يكن بحاجة دائما لغير منضدة وورق وزجاجة من المداد ليغرق في تدوين خواطره الى اذنيه . أما الاخرون الذين كان يعظهم بمضاعفة الاقتصاد ، على الدوام ، فقد كانت الحال بالنسبة اليهم مختلفة كل الاختلاف !

وجاءت معجزة ديوان « التأملات » لتنقذ الموقف في تلك الايام ، اذ كان هوجو يرتب أدراج مكتبه ذات صباح حين وقعت عيناه على نحو أحد عشر بيتا تقريبا من الشعر كتب بعضها منذ زمن بعيد أيام السعادة التي ولت ، وبعضها الآخر من انتاج الحاضر ووحي السعادة وهو عبارة من أشعار الذكرى والتأمل . وكان الناشر هتزيل ـ « ذلك الزميل العزيز في المنفى » وكان منفيا مثله ـ يتمنى أن يتكفل بالنشر . فأراد هوجو أن يضرب ضربة كبرى وأن ينشر الكل في جزئين ، اذا كان يريد أن يصرع أعداءه بعدد ضخم من التحف الادبية النادرة

ونجح ديوان التأملات نجاحا غير منتظر ، لا بفضل النقاد .. اذ بقى سانت بوف ، ولامارتين صامتين لا يعلقان عليه بكلمة واحدة ، ولكن يرجع نجاحه الى نفسه ، فان جميع الذين يحبون الشعر قد تعرفوا فى هذا الديوان على أجمل الاشعار التى صيغت باللغة الفرنسية

واشترى هوجو فى العاشر من شهر مايو بالعشرين الف فرنك التى قبضها من هتزيل ، لقاء حق التأليف ، بيتا كبيرا يدعى « منزل المدينة العالية » ودفع ثمنه كله فورا من كتاب « التأملات » .. اذ كان تواقا الى أن يصبح مالكا من بين الملاك فى الجزيرة يدفع « الاموال المقررة للتاج » ، ومن ثم يصبح من غير الممكن طرده كما كان يقضى القانون المحلى. وكان هوجو وقتئذ قليل الامل فى أن تحدث تغيرات فى فرنسا، اذ كان يرى أن الناس هناك تشغلهم الاعمال أكثر مما تشغلهم الحريات ، ولكن .. ترى أكان يريد حقا أن يغادر جيرنيزى؟

اننا لنتردد قليلا قبل أن نجيب بنعم عن هذا السؤال ، فقد كانت صحة الكاتب هناك مدهشة ، وكان ينتج انتاجا لم يسبق له نظير . أما بالنسبة لزوجته ولابنتها ديديه بصفة خاصة ، فقد كانت تلك الاقامة الدائمة بالجزيرة مصدرا دائما للحزن والاكتئاب . وكانت آديل تدرك بالطبع أن كرامة زوجها تأبى عليه أن يعود الى فرنسا ما دام عهد الامبراطورية قائما ، ولكن ألم يكن هناك مكان آخر للمنفى أقل وحشة ، ويستطيعون فيه أن يستمتعوا بعلاقات لطيفة مع الناس ، ويتاح لهم أخيرا أن يجدوا زوجاً لديديه ؟

والواقع أن الارهاق الصامت الذى كانت تعيش فيه هذه الفتاة ، كان يؤرق بال الام .. ولكنها لم تكن تجرؤ مع ذلك

على أن تصارح زوجها بمخاوفها لانها كانت تعرف تماما أنه يواجه دائما مثل هذه الامور بحجج رنانة لا تقبل الجدل . ولهذا فكرت الام المسكينة فى أن تفاتحه كتابة فى هذا الشأن، فكتبت اليه تقول : « ان الحياة التى تحياها هذه الابنة يمكن ان تستمر بعض الوقت ، ولكن اذا دام المنفى زمنا طويلا فان هذه الحياة تصبح مستحيلة .. انني ألفت نظرك الى ذلك وانا ساهرة على ابنتى ، وأرى ان حالة ركودها وتوتر أعصابها قد عادت اليها ، وانى مصممة على أن أؤدى ما سيمليه على الواجب كى أحميها فى المستقبل . . ان حياتكم أنتم الثلاثة(١) ليست فارغة ، وابنتى وحدها هى التى تفقد حياتها ، وهى عاجزة بلا سلاح .. ومن واجبى ان أضحى لارعاها . ان صنع السجاد وزرع حديقة صغيرة ليسا طعاما معنويا كافيا لفتاة فى السادسة والعشرين .. »

وصدم هوجو من جراء خطاب زوجته ، فأفهمها أن شعوره قد جرح ، واتهم هذه « الأسيرة » الشابة بالانانية والجحود، فكتبت اليه زوجته تقول : « لقد قلت لى هذا الصباح ان ابنتك لا تحب الا نفسها ، ولم أشأ أن أعلق على هذه الكلمة .. ان آديل قد منحتك شبابها دون أن تشكو ، ودون أن تطلب منك اعترافا بالجميل ، وهأنتذا تجد أنها انانية ! .. فمن ذا الذى يعرف ما قاسته ، وما سوف تقاسيه ، حين ترى مستقبلها وهو يفلت منها ، وحين تتطلع الى المستقبل فترى أن الغد سيكون مثل اليوم ؟ .. كل شيء هنا يعتبر ضارا بآديل .. ولما كنت أشعر بما يجب نحوها ، وبما يمكن

---

(١) تعنى زوجها هوجو وابنيه شارل وفرانسوا فيكتور

اصلاحه ، فاننى أضحى كلية فى سبيل هذه البنت المسكينة. ان العدالة تعمل لدى أكثر مما تعمل الامومة ، وكيف لا يفعل المرء من أجل ابنته ما يفعل من أجل عشيقته ؟ .. »

وكانت الام على حق ، الا أن هوجو الفارق فى عمله وتأملاته لم تكن لديه بقية من الوقت يتاح له فيها أن يفكر فى آلام أسرته ، اذ كان كل وقته ونشاطه الفياض فى الفترة ما بين عامى ١٨٥٦ ، ١٨٥٩ موزعين بين مؤلفاته ، وعشيقته جولييت ، وتهيئة جو فنى يرضى مزاجه بمنزل « المدينة العالية » الذى صار ملكا له

وكان هوجو يحب أفراد أسرته ولكنه كان قاسيا فى معاملتهم ، فما ان حل عام ١٨٥٨ حتى كانت روح التمرد قد استولت على نفوس المنفيين . وفى يناير من ذلك العام ، رحلت آديل مع ابنتها « اديل الصغيرة » الى باريس لتقضى بها مدة شهرين امتدت الى أربعة . ان آديل كانت تكتب الى زوجها فى عصبية :

« اننى أحبك بالطبع يا صديقى العزيز ، وأنا ملك لك ولا اريد أن تتألم ، ولكن فلنحاول أن نتفاهم بصراحة :

« لقد اخترت جزيرة جرزيه مكانا لاقامتك فذهبت معك الى هناك . وحينما أصبحت الاقامة مستحيلة فى جزيرة جرزيه جئت الى جيرنيزى دون أن تسألنى عما اذا كان ذلك يروق لى ، ولكننى جئت معك . وبعد ذلك اشتريت منزلك ولم تستشرنى فى هذه المسألة ، ومع هذا تبعتك الى هذا المنزل .. وهكذا ترى أننى خاضعة لك ، ولكننى فى الوقت نفسه لا استطيع أن أكون عبدة تماما .. »

وعادت آديل وابنتها فى شهر مايو لان هوجو مرض لاول

مرة فى حياته ، ولمدة أسابيع ظل ملازما للفراش فى حالة خطرة . وكانت جولييت طبقا للتقاليد الاخلاقية السائدة فى منزل المدينة العالية لاتستطيع أن تزوره ، فكتبت اليه تقول : « آه يا عزيزى المسكين .. كم أود أن أكون خادمة عندك فى هذا الوقت الذى تحتاج فيه الى انسان يقوم لك بالخدمات الصغيرة التى لاشك أنك فى أمس الحاجة اليها »

واستمر جو الحزن والكآبة يخيم على هؤلاء المنفيين طيلة البقية الباقية من عام ١٨٥٨ ، وليس أدل على ذلك مما كتبه فرانسوا فيكتور الى أحد أصدقائه . كتب فرنسوا الى صديقه يقول : « انك لاتستطيع أن تتصور مدى الحزن الذى يخيم على منزل المدينة العالية . اننى أخشى أن تتفكك هذه المجموعة الصغيرة نهائيا فى هذه المرة ، وعلى أية حال فاننا نمر فى المرحلة المظلمة من المنفى ولست أرى فيما يلوح لى نهاية النفق .. » .

أما أوجيست فاكيرى فرحل الى فيلليكييه بعد أن أصبح لا يطيق العيش فى الجزيرة ، وفى ٩ مايو عام ١٨٥٩ رحلت آديل وابنتها يصحبهما شارل هوجو الى انجلترا ..

ولكن هذه الشكاوى وأمثالها ، لم تكن تشغل فى عقل هوجو مكانا كبيرا . ان ما يهمه ويشغل باله هو انتاجه الادبى ، وبصفة خاصة « أسطورة القرون » التى كانت قد نشرت فى باريس وأحدثت هناك دويا هائلا . ان هوجو فى عام ١٨٦٠ أديب تغلى نفسه ـ بعيدا عن كل هذه المشاكل ـ بالافكار والمشروعات ، وهاهو ذا يطلق لحيته بعد مرض عضال أصاب حنجرته ، ويأخذ شكل الجد الشيخ الذى سيعرف به فى التاريخ . وعلى الرغم من أنه قد أصبح الان فى الحلقة

الســادسة من عمــره ، الا أن جسمه الذى كان لا يريد أن يشيخ أبدا كان يعذبه ويقوده الى رمال الشــواطىء لمقــابلة الفتيات وحتى الى سرائر القش التى تنام عليها الخادمات

وكانت آديل تعود الى جيرنيزى لترحل عنها من جــديد الى انجلترا أو فرنسا ، انهــا الان سـيدة ممتلئة فى حوالى الستين من عمرها تحب أن تزور أسرتها آل فوشيه ، واحيانا تصعد سرا الى السلم المؤدى الى شقة سانت بوف فى شارع مونبارناس . ان سانت بوف قد أصبح بدوره رجلا عجوزا ، ولكنه كان لا يزال يحتفظ بجاذبيةكبيرة فى الحديث ، وقدرة على توجيه الاطراء والغزل الرقيق .. أوليست هذه فترات لطيفة للراحة بعد هــذه الحيــاة القاســية مع « وحش » جزيرة جيرنيزى الذى يحب السيطرة ؟

ان الاسرة كلها كانت تتفكك .. ان آديل الصغيرة(١) التى اصبحت الان فتاة عانسا قد انتهزت فرصة غياب والدتهــا فى باريس ،.وفرت هاربة كى تتبــع ملازما انجليــزيا يدعى البرت بنسون وكانت لهــا مأســاة طويلة انتهت بدخولهــا مستشفى الامراض العقلية . أما شارل هوجو فقد ســافر الى باريس واستقر بها دون أن يخطر والده . وفى نهاية عام ١٨٦٥ ، غادر باريس الى بروكسل حيث تزوج فى عام١٨٦٥ فتاة يتيمة لطيفة فى الثامنة عشرة من عمــرها تدعى آليس لاهين . ولما كانت مدام هوجو قد أصبحت لا تطيق العيش فى جزيرة جيرنيزى بعد هروب ابنتها ، فقــد ذهبت لتعيش مع ابنها شارل وزوجته . وبالنسبة لفرانسوا فيكتور ، فقد

---

(١) ديديه

أمره والده بالرحيل بعد أن خشى على عقله اثر وفاة خطيبة له كان على وشك أن يتزوجها ..

وهكذا لم يبق فى المنفى سوى هوجو وجوليت .. ان الاسرة قد هجرت ربها ، وكلما خلا الجو لرب الاسرة غدا ملكا لعشيقته . وها هى ذى جولييت تكتب اليه تقول :

« اننى أطلب من السماء ان تمد فى اقامتنا هنا وان تمد فى أعمارنا .. »

وكان هوجو يرد عليها بقوله :

« فى ٣١ ديسمبر عام ١٨٦٧ : ان شمسا جميلة تشرق الان فى آخر أيام هذه السنة التى انتهت ، وغدا يصحو مستقبلنا فى اول يوم من أيام العام الذى سوف يبدأ توا . لقد قضينا سبعة عشر عاما فى المنفى وأربعة وثلاثين عاما من الحب .. أى الضعف تماما يا عزيزتى . وبفضل حبك أيها الملاك الحلو لم يكن هناك منفى ، فقد كنت لى وطنا وشعاعا مضيئا فى وحدتى المظلمة .. »

******

البؤساء

وكان هوجو منذ مدة طويلة ، يعمل فى رواية اجتماعية كبرى تعالج موضوع العقوبات وظلم القوانين وعدم منطقيتها، وتطالب برد الاعتبار الى من يخرجون من السجن بعد قضاء العقوبة والتكفير عن أخطائهم . والواقع أن هذه الافكار وأمثالها كانت تشغل تفكيره وروحه منذ أن كان يؤلف كتابه « آخر أيام محكوم عليه بالاعدام » . وكانت روح العصر تشجع هذا الاتجاه ، فجورج صاند ، ودوماس ، وفريدريك سوليبيه ، كانوا يؤلفون الروايات الاجتماعية التى تصف آلام الشعب ، فضلا عن أن غرائز هوجو الطبيعية كانت تجتذبه الى الكتابة فى مثل هذه الموضوعات .. وكثيرا ما كان يردد :

كيف نحتملّ الالم فى هذه الدنيا ؟
وكذلك الجوع والعمل الشاق والبؤس والشر ..
هذه المشاكل كلها تمسكنى بمخالبها

والواقع أن هذه الابيات كانت تعبر عن مشاعر قوية ثابتة أصيلة فى نفس فيكتور هوجو . لقد كان يؤمن ايمانا مخلصا بالفن ولكنه لم يؤمن أبدا بالفن من أجل الفن

والواقع أن هوجو قد كرس نفسه لكتابة « البؤساء » منذ عام ١٨٤٥ حتى عام ١٨٤٨ ثم انقطع عن الكتابة حتى عام

١٨٦٠ ، وفى هذا العـام عاود الكتـابة من جـديد حتى أتم الرواية ، وكتب الى أوجيست فاكيرى يقول :

« فى هذا الصباح ، وفى الساعة الثامنة والنصف من ٣٠ يونيو عام ١٨٦١ فرغت من كتابة « البؤساء » والشـمس ترسل أشعتها الجميلة من خلال نافذة غرفتى .. »

وكانت جولييت خير سند لهوجو طيلة المدة التى استغرقتها كتابة هذه الرواية ، فهى التى تقـوم بنسـخ مسوداتها ، وكانت تتابع شخصياتها فى شغف بالغ .. وقد كتبت اليه فى ٢٣ ديسمبر ١٨٤٥ تقول : « اعطنى كلّ مسوداتك لابيضـها لك .. اننى أود أن أعرف ماذا سيحدث بعد ذلك للمطران الطيب .. » وفى ٣ فبراير عام ١٨٤٨ كتبت تقول :

« اننى أشعر بمدى ما يقاسيه جان تريجان (١) المسكين من ألم وعذاب ، حتى اننى أبكى على الرغم منى على مصير هذا الشهيد المسكين. ولست أعرف مايمكن أن يؤثر فى النفس أكثر من فانتين المسكينة ، ولا ما يؤلم كهذا الانسان الخامل شانماثيو .. انى أعيش مع هؤلاء الاشخاص وأقاسمهم آلامهم كما لو كانوا أناسـا حقيقيين من دم ولحم ، لانك تخلقـهم بطـريقة طبيعية للغـاية .. ولست أعرف ماذا أقول لك ، ولكننى بكل ما أملك من عقل وقلب أحب هذه الرواية التى تسميها بحق رواية البؤس .. »

وفى مايو من عام ١٨٦١ ، كانت جولييت سـعيدة الحظ بمصاحبة هوجو فى رحلة لمدة شهرين ، أقاما خلالها فى فندق « دى كلون » ببلدة « مون سان ميشيل » حيث أراد الكاتب

(١) الاسم الذى كان يطلقه هوجو فى بادىء الامر على « جان فالجان »

ان يكتب الجزء الخاص بمعركة واترلو فى نفس المكان الذى دارت فيه المعركة . وكانت جوليت تذهب معه الى كل مكان لتقطف له الازهار التي يحبها ، وتفحص معه الاشجار التى كانت كل شجرة منها تحمل أثرا لرصاصة أو طعنة من طعنات السونكى . واحيانا كان يتركها بمفردها فى الفندق ويذهب الى بروكسل لزيارة الاسرة ، فكانت تنصرف الى « تبييض » مسودات الاجزاء التى فرغ من كتابتها ، وكانت تقول له حين يعود :

« التبييض هو خير دواء لآلامى .. انه عملى الصغير العزيز الذى أوثره على كل شىء آخر بعدك .. »

وكان هوجو يعرف سلفا أن جمهورا كبيرا سوف يقرأ روايته التى أنهك فى كتابتها قواه زمنا طويلا ، فأراد أن يستفيد من هذه الفرصة بأن يحصل على دخل يضمن به مستقبله المادى بصفة نهائية . وعرض على أحد الناشرين أن يدفع له فى الرواية ثلاثمائة ألف من الفرنكات (١) ، على أن يتنازل له هوجو فى مقابل ذلك عن حق النشر لمدة اثنى عشر عاما ، وكانت تلك هى أول مرة يتقاضى فيها هوجو مثل هذا المبلغ ، وان كان لامرتين ودوماس الاب وأوجين ، قد ربحوا حتى ذلك الوقت أكثر من ذلك بكثير !

ونشرت الرواية وكتب بول موريس الى هوجو فى ٦ يوليو عام ١٨٦٥ يقول :

« ان باريس تلتهم منذ ستة أيام رواية البؤساء ، وتنبىء التعليقات الاولية وبعض المقالات التى ظهرت فى الصحف

---

(١) أى ما يعادل على الاقل ستين مليون فرنك قبل تخفيض قيمة الفرنك الفرنسى فى عام ١٩٥٣.

بأنها سوف تحرز نجاحا ضخما ، وهو أمر كنا نتوقعه مقدما . ان الناس يكادون يطيرون من الفرح ! ولم تعد هناك اعتراضات سخيفة ولا تحفظات تنم عن ضيق الافق ، فهذا البناء الضخم من العظمة والعدالة والرحمة النبيلة تفرض نفسها بنفسها على الجميع بطريقة حتمية .. »

ومن الطريف أن ناشر الرواية قد ربح منها فى الفترة مابين عامى ١٨٦٢ ، ١٨٦٨ ربحا صافيا مقداره ٥١٧ الفا من الفرنكات !

وأقيم فى بروكسل حفل تكريم ، كان المؤلف فيه ضيف الشرف .. أما سانت بوف الحذر ، فلم يكتب نقدا علنيا فى الصحف خوفا من التورط ، ولكنه كتب فى مذكراته الخاصة يقول : « فى الوقت الذى كان كل المؤلفين المعاصرين قد أصبحوا شيوخا لا هم لهم الا تدفئة عظامهم العجوزة تحت أشعة الشمس على مقاعد قصر الانفاليد ، يعطى فيكتور هوجو برهانا ساطعا على شبابه . وكان من واجبه أن يعطى براهين أخرى كثيرة على ذلك ، ولكن الوقت لا يتسع هنا لاتحدث عن « وليام شكسبير » و « عمال البحر » و « الملك يلهو » ، وسأفعل ذلك فى الكتاب الذى سأكتبه فيما بعد من سلسلة هذه المحاضرات »

واليوم ، تعد رواية البؤساء من أبرز المؤلفات التى نالت شهرة انسانية ، ويحتل أبطالها « جان فالجان » و «ميريل» و « جافير » و « فانتين » وأسرة « تيناردييه » ، وكذلك « ماريوس » و « كوزيت » مكانهم الى جوار أبطال الروايات العالمية الاخرى ، كالاب « جرانديه » و « أوليفر تويست » و « ناتاشا روستوف » و « الاخوة كارامازوف »

وفاة آديل

وفاة آديل

لن نستطيع أن نجد ما يصور لنا حياة فيكتور هوجو فيما بين عامى ١٨٦٦ ، ١٨٦٩ خيرا من شهادة « بول ستابفير » ، وهو مدرس شاب للغة الفرنسية ، كان يتردد على جزيرة جيرنيزى لتدريس الادب فى احدى مدارسها ، وكان ممن يتردد على بيت الشاعر ..

ويذكر ستابفير أن هوجو كان دائما بمفرده أو جالسا مع شقيقة زوجته « جولى فوشيه » ، وكان أهالى الجزيرة يبدون اهتماما كبيرا بأمر الشاعر الفرنسى الذى كانت أفكاره الجمهورية وآراؤه عن الملكة فيكتوريا تجرح مشاعرهم

وكان ستابفير يحب طريقة هذا الشيخ النبيلة فى المشى ، فقد كان يسير منتصب القامة ، فى خطوات ثابتة مستقيمة ويرتدى قبعة لينة ذات حافة عريضة ، وكان يحمل على كتفه دائما معطفا كما لو أنه يتوقع أن ينهمر المطر فى أية لحظة

وكان حديثه يبدو طبيعيا بسيطا ويتسم بخفة روح فرنسية اذا ما تحدث مع شخص آخر على انفراد ، أما اذا كان هناك مستمعون كثيرون ، فتأخذ الشخصية حينئذ مكانها بدلا من الشخص ، ويصبح هذا الرجل البسيط متحدثا بليغا ، فيهاجم المادية ، ويسخر سخرية مرة من قول تين (١) : « ان الفضيلة والرذيلة هما بدورهما منتجات كالسكر وماء النار » ، فيقول فى عصبية ظاهرة : « انه انكار

---

(١) ناقلا من أعلام النقد العلمى : Taine

بشــع للفرق بين الخـير والشر ، ولكم أود لو كنت الان فى الاكاديمية كى أصوت مع مطران مدينة أورليان ضد هــذا الانسان ! »

وكان هوجو يكره «راسين» أشد الكره ويقول عنه : « انه انســان غير واثق من نفسه ، يكتب أحيــانا بأسلوب ردىء للغاية .. » وكان يعلن رأيه فى كتــاب عصره بلا أدنى حرج كأن يقول : « ان موسيه أقل بكثير من لامارتين » أو « ليس هناك سوى كاتب كلاسـيكى واحــد فى قرننــا هــذا ، هل تفهمون ؟ انه أنا .. اننى أحسن كاتب يعرف الفرنسية فى هــذا العصر ، ويأتى بعــدى ســانت بوف وميريميه ، ولكن ميريميه كاتب قصير النفس .. انه قنوع كما يقال عنه . أما « تيير » فهــو بواب وجــد قــراء من البوابين ، ولدى شاتوبريان كثير من الاشــياء الرائعـــة ولــكن ليس فى قلبه ذرة من حب الانسانية .. ان له طبيعة كريهة . انهم يتهموننى بأننى متكبر وهذا صحيح ، ولــكن كبريائى هى سبب قوتى .. »

أما عن آديل ، فيقول « ستابفير » انها تتمتع بشخصية عظمة تبعث على الاحترام ، وكانت تبــدو جميلة بثيــابها الانيقة وشعرها المصفف على شكل « بريمات » عريضة ، وكانت تصحح لشقيقتها جولى بين حين وآخر بعض الاخطاء اللغوية كأن تقول :

ــ آه ! انت تستطيعين يا جــولى ان تقولى انه ميدوك ان الصحيح هو أن تقولى : بليز ميدوك

***

وقد شهد عام ١٨٦٧ حادثا هاما فى المحيط العائلى لفيكتور

هوجو : أعنى ذلك التقرب بين مدام هوجو وجولييت دروويه، وكانت الاولى غائبة عن جزيرة جيرنيزى منذ عامين ، فلما عادت اليها قامت بزيارة مدام دروويه لتشكرها على أنها حلت مكانها أثناء غيابها . وتأثرت جولييت تأثرا شديدا بأن تبدى « مدام هوجو » نحوها مثل هذا الاحترام » فبادرت برد هذه الزيارة فى سرور كبير ..

وانقضى بعض الوقت ، ثم وجه شارل هوجو وزوجته دعوة لمدام دروويه لقضاء فترة من الوقت فى بيتهما ببروكسل، فلبت جولييت الدعوة وهى تشعر بسعادة بالغة ، وكتبت الى هوجو فى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٦٧ تقول :

« أن قلبى لم يعد يدرى أيكما يحب .. اننى مسرورة للغاية وأشعر بحنان وسعادة أكثر مما ينبغى أن تشعر به امرأة عجوز مثلى ، لقد كنت أحس بسعادة غامرة طيلة الايام الخمسة عشر التى قضيتها فى بروكسل ، والتى حفلت بحب الاسرة وحنانها .. اننى أباركك وأعبدك .. »

وكانت زيارة مدام هوجو لجولييت ، وكذلك الدعوة التى وجهتها اليها أسرة شارل بمثابة رد اعتبار له وقع السحر فى نفس هذه السيدة المسكينة التى عاشت حتى سن الواحدة الستين فى حرمان طويل شاق وخاصة حينما أذن لها فى أن تزور منزل المدينة العالية ، وكتبت جولييت الى هوجو فى ١٢ ابريل من عام ١٨٦٨ تقول : « أريد أن أنتهز كل اللحظات والفرص التى يمنحها لى الله ، اننى أشكركما وأعبدكما .. »

وقضت جولييت صيف عام ١٨٦٨ فى بروكسل مع هوجو كما حدث فى العام السابق

فى ذلك الوقت ، كانت آديل تسير بخطى سريعة نحو الشيخوخة ، ان عينيها أصبحتا لاتساعدانها على القراءة..

وكانت آديل قد أمضت قبل ذلك مدة طويلة فى باريس لتحضر اعادة عرض مسرحية « هارنانى » فى عام ١٨٦٧ التى كانت الرقابة قد أذنت بعرضها أخيرا .وكان شقيقها فيكتور فوشيه قد مات منذ وقت قريب بالسكتة القلبية ، وكانت بدورها مصابة بلغط فى القلب وتشعر بأنها مهددة فى اية لحظة ، وكثر حديثها عن نهايتها التى باتت وشيكة ، ولكن تفكيرها فى هذا الامر كان يتسم برحابة صدر كبيرة ، وكانت تقول : « ان ما يحزننى فقط اننى أوشك أن أموت فى اللحظة التى بدأت فيها أقدر مؤلفات زوجى المجيدة وأتذوقها . يا للاسف ! اننى أموت فى اللحظة التى يأتينى فيها العقل ! »

وكان هوجو يعرف انها مريضة ، فكتب اليها ينصحها بالا تذهب الى مسرح الكوميدى فرانسيز لمشاهدة الحفلة الافتتاحية لمسرحية هرنانى ، وذلك خوفا عليها من الانفعال، ولكن آديل ردت عليه بخطاب مؤثر تقول فيه :

« لم يعد أمامى وقت طويل أعيشه حتى أضيع هذه الفرصة التى تعيد الى ذكريات شبابى الجميلة .. أتطلب منى أن أتخلف عن حضور الحفل ؟ كلا يا سيدى ..! أولا ، لان هرنانى لن يصفروا لها فى هذه المرة ، وثانيا لاننى أعرف كيف أواجه الضوضاء . حقا ان عينى ضعيفتان للغاية ، ولكننى سأتابع المسرحية حتى لو فقدت البصر تماما .. إننى سأذهب لمشاهدة هرنانى حتى ولو اضطررت الى أن أرهن شخصى العجوز ، وان كان أحد للاسف لن يعطينى شيئا كبيرا لقاء ذلك ... »

والواقع أن آديل كانت شديدة الرغبة فى أن تشاهد مرة ثانية هذه المسرحية التى كانت تذكرها بآخر عام سعيد فى حياتها الزوجية ، فلم تقتصر على حضور الحفل الافتتاحى فقط .. بل شاهدت كذلك بروفات المسرحية جميعـــا . وكانت الصحف تشير الى وجود « مدام فيكتور هوجو » فى باريس ، ، وكانت آديل تحب ذلك وتقول : « يا له من اسم مشهور ذلك الذى أحمله ! .. » وكان الطلبة اذا شاهدوها يتجمهرون حولها ، ولقد قال لها أحـــدهم ذات مرة : « ان فيكتور هوجو هو ديننا ! »

وكان النجاح عظيما !.. وبعثت آديل الى زوجها تقول : « انه حماس جنونى ! ان الناس كانوا يقبلون بعضهم بعضـــا .. وقد فاقت حماسة الشباب كل حد . لقد أثبت الشباب أنه شجاع وعلى استعداد لكل شىء . اننى سعيدة .. بل اننى فى السماء ! »

وكتب سانت بوف الى آديل يقول :

« سيدتى العزيزة .. ان هذه شهادة رائعة يقدمها شبابنا، وهكذا فان لكل عبقرى ساعته ، وعبقرية زوجك الآن فى وضح النهار . ولشد ما اشعر بالندم المر وانا مسمر هكذا فى مقعدى لاننى لم استطع أن أشارك فى هـــذا المهرجان الشـــعرى ولو بزيارة الى المسرح ، كى اسمع عن قرب هذا التصفيق الحاد الجميل الذى يوقظ فى انفسنا كثيرا من الأصداء ، وذلك كى اثبت أننى متمسك بالا أفقد مكانى بين المدافعين القـــدماء عن مسرحية هرنانى .. »

وكان سانت بوف بدوره ، يحس بأن شبح الموت قد بات قريبا منه هو الآخر ، ولم يعد للكراهية والخلافات مكان فى

القلب ولا متسع من الوقت .. وها هو ذا يرسل خطابا الى الشاعر شارل بودلير ، الذى كان من الأصدقاء الذين يترددون على بيت هوجو ، يقول فيه :

« ان حب هوجو للانسانية موجود دائما فى أصغر شىء يكتبه . وكم هو لطيف منك أن تتحدث عنى أحيانا الى مدام هوجو .. انها الصديقة الوحيدة المثابرة التى كانت لى فى هذا العالم . ان الاخريات لم يغفرن لى أبدا ان افترقت عنهن فى لحظة معينة .. اننى اجد تلاميذ الطريقة الاخيرة ثقيلى الدم للغاية ، وأعتقد أنهم لم يولدوا الا للتهريج على المدرسة التى توشك أن تنتهى (١) ، وليطبعوها بطابع ثابت من السخرية .. ولكن هوجو يحلق فوق هذا كله فى غير اهتمام . اننى مقتنع بأننا لو كنا قد تقابلنا معا مباشرة ودون تدخل من أحد ، لاستيقظت المشاعر القديمة فى أليافها الدفينة ، اذ لم يحدث قط أن رأيته مرة دون أن نتفاهم بعد بضع ثوان ، كما كان يحدث فى الزمان الماضى .. »

وقام « بودلير » بايصال هذا الخطاب الى آديل التى أطلعت عليه زوجها ، ولكن آديل وسانت بوف سرعان ما استراحا من خلافات ومصالحات هذا العالم .. ففى ٢٦ أغسطس عام ١٨٦٨ ، خرجت آديل مع زوجها فى المركبة ، وكان هوجو يبدو رقيقا جدا وكذلك كانت آديل مرحة للغاية . وفى اليوم التالى أصيبت آديل بأزمة قلبية فارقت على اثرها الحياة !

وكانت آديل قد كتبت الى زوجها قبل وفاتها بشهر واحد تقول :

---

(١) يعنى « سانت بوف » بذلك المدرسة الرومانتيكية

« حين أمسك بك ، سأتعلق بك دون أن أسألك الاذن .. اننى حينئذ ساكون حلوة ولطيفة جدا لدرجة أنك لن تجد الشجاعة لتهجرنى .. ان آخر أحلامى هو أن اموت بين ذراعيك .. »

وقد تحققت هذه الأمنية ..

ودفنت آديل كرغبتها فى فيليكيبيه الى جوار ابنتها ليوبولدين . ولم يستطع هوجو أن يرافق جثمانها الا الى الحدود ، ولكنه أمر بأن يحفر على شاهد قبرها هذه العبارة :

« آديل زوجة فيكتور هوجو »

ترى هل كان ذلك كبرياء منه ؟ أو هى رغبته فى أن يستعيد بعد الممات تلك المرأة التى أفلتت منه فى حياتها يوما ما ؟ أو اطراء لاخلاص الزوجة الصديقة ؟ أم أنه اعتراف بجميل جولييت ؟

لا احد يعلم !..

وحين عادت جولييت الى جزيرة جيرنيزى ، لم تحاول أبدا أن تغرى الرجل الأرمل بالزواج منها .. بل لقد احتفظت بذكرى آديل حتى آخر أيامها باحترام يقارب حد العبادة . وكتبت فى ١٠ اكتوبر من عام ١٨٦٨ تقول :

« اننى أود من هذه الشاهدة على حياتك فى الدنيا أن تتفضل على بأن تكون شاهدتى أمام الله فى السماء .. اننى أطلب الاذن من الله بأن يدعنى أحبك حتى آخر أيامى فى هذه الدنيا ، وفى الآخرة .. اننى أطلب منها كذلك أن تهبنى بعض هذه الموهبة التى كانت تجعلك سعيدا ، وأتعشم أنها ستمنحها لى لانها تعرف الآن ما يدور فى أعماق قلبى .. »

جنية نهر الأور

دخل القطار الذى يحمل جثـة شـارل هوجـو باريس والاضطرابات تسود العاصمة ، وكانت حكومة باريس الثورية فى الحكم ..

وفى محطة أورليان بباريس ، كان هناك جمهور غفير ينتظر وصول فيكتـور هوجو مع جثمـان ابنه الميت ، وما أن أنزل النعش من القطار حتى تجمع حول عربة نقل الموتى حرس شرف منكس السلاح .. وعلى طول المسـافة من ميـدان الباستيل حتى مقبرة بير لاشير اصطف جنـود من الحرس الوطنى لتحية الكاتب الكبير وابنه الميت

وقبل انزال النعش الى القبر ، ركع هوجو على ركبتيـه كعادته ، وقبل الصندوق فى خشوع .. ولما انتهت مراسيم الدفن ، كان الناس يحيطون به من كل جانب وقد أمسكوا بيديه مواسين فى رفق ، وكان لكل تلك العناية فى نفس هوجو أبلغ الأثر فتمتم يقـول : « كم يحبنى هـذا الشـعب وكم أحبه ! »

وكان على هوجو أن يرحل فجأة الى بروكسل فى صحبة جولييت وأرملة ابنه شارل وولديها ، وقد لامه الكثيرون على ذلك ظنا منهم أنه يؤثر الابتعاد بدلا من أن يختار بين حكومة بوردو للجمهورية الثالثة وحكومة باريس الثورية ، والواقع أن وجود هوجو فى بلجيكا فى هذه اللحظة كان ضرورة ملحة

.. اذ أن شارل وزوجته أليس قد اعتادا أن يلعبا القمار فى مدينة « سبا » (١) ، وخسرا فى ذلك مبالغ ضخمة ، ومن ثم فكان يجب تسديد هذه الديون ..

***

ومن بروكسل ، كان هوجو يتتبع الأحداث التى تجرى فى باريس فى اهتمام وألم ، فقد كانت الحرب الأهلية تمزق البلاد .. وفى كل يوم تقريبا ، كان يبلغه نبأ موت أحد الأصدقاء أو القبض على أحد المعارف

ونشر مقال هوجو عن حق « الالتجاء السياسى » فى جريدة الاستقلال البلجيكية ، وتلقى الكاتب كثيرا من خطابات التهنئة والاعجاب ، ولكن حدث فى نفس الليلة أن استيقظ أثناء الليل على صوت أحجار تحطم زجاج النوافذ ، وهتافات تنادى قائلة : « الى الموت يا فيكتور هوجو ! الى المشنقة أيها المجرم .. ! »

كان المتظاهرون حوالى خمسين شابا من الرعاع جاءوا بتحريض من البروسيين ، وحاولوا تحطيم أبواب البيت للدخول ولكنهم لم يفلحوا ، فعادوا أدراجهم وهم يسبون..

والواقع أن هذا الحادث لم يكن على جانب يذكر من الخطورة ، غير أن هوجو فوجىء فى اليوم التالى بمرسوم صادر من الحكومة البلجيكية يأمر : « مسيو فيكتور هوجو المشتغل بالأدب والبالغ من العمر تسعة وستين عاما بمغادرة البلاد فى الحال ، ومنعه من العودة اليها فى المستقبل »

والآن ما العمل ؟.. ان العودة الى فرنسا فى تلك اللحظة

---

(١) Spa

معناها أن يعرض نفسه لاحداث عنيفة لا جدوى منها ، وبعد ساعات من التفكير قرر أن يذهب الى لوكسمبرج ..

ان هوجو كان قد سبق له زيارة لوكسمبرج اربع مرات مع جوليت خلال رحلات الصيف ، وكان قد توقف أربع مرات فى مدينة فياندن الصغيرة ، حيث عرفه اهل البلدة ، وازدحموا تحت نافذة بيته هاتفين بحياته ، فلم لا يذهب ليعيش هناك فى سلام ؟

ورحل هوجو الى لوكسمبرج ، وكان فى انتظاره على رصيف المحطة جمهور غفير استقبله أروع استقبال . وكان هناك كثير من النساء الجميلات جئن يشاهدن الكاتب الرومانتيكى الشهير ، ويصفقن له فى حماس

وفى بلدة فياندن ، استأجر هوجو منزلين أحدهما لنفسه وهو بيت قديم مزخرف يطل على نهر الاور ، والآخر لاسرته، ويقع أمام البيت الاول . وما أن استقر هوجو فى فياندن حتى عكف على قصائده ورواياته من جديد ، وراح يعمل فيها بسعادة بالغة لم يكن يعكر صفوها سوى أنباء باريس التى جاءته تقول ان بول موريس قد القى القبض عليه ، وأن أوجيست فاكيرى موضوع تحت المراقبة . وأصبح من المعروف عن هوجو أنه يستقبل اللاجئين من مواطنيه ، ويمد لهم يد العون ..

وذات يوم ، جاءه خطاب من أرملة شابة لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها تدعى مارى مرسييه تطلب منه المأوى، وكان لها حبيب يدعى موريس جارو وكان يعمل صانعا للأقفال ، وقتل رميا بالرصاص أثناء الاضطرابات ، وكانت مارى ترجو الكاتب المعروف أيضا أن يجد لها عملا تعيش منه

وقبلت زوجة شارل أن تأخذ الفتاة خـــادمة عندها ، واتخذها هوجو عشيقة له ..

كانت ماری مرسييه فتاة خمرية اللون ذات جمال رائع، ووجه مستدير ذی شفتين ممتلئتين ، وكانت باهمالها لنفسها ودموعها وسحرها الحزين الذى يختفى تحت نقاب الحداد المصنوع من «الدانتل» ذات جاذبية خاصة بالنسبة لعاشقنا الرومانتيكى !

والواقع أن ماری قد ترددت اول الأمر فى أن تمنح نفسها لحب جديد .. ولكنها فى غمرة يأسها وشبابها الفائر ، لم تلبث ان استسلمت لجاذبية الكاتب الشهير ، ولباقته الآسرة، وفى ذلك تقول : « لقد كانت لمسـيو هوجو طريقة خاصـة لا يسع المرء معها الا أن يقع فى حبه »

وكان هوجو يحدثها عن الازهار والحب والخلود ، مثلما كان يفعل فى الماضى مع جوليت ، وكانت ماری من ناحيتها تحب هوجو حبا جما ، وتسـبح أمامه عارية فى ميـاه نهر « الأور » الصافية كى تبعث فى نفسه السرور ، وكانت أمنيتها أن تلد له طفلا جميلا

وكان « الشيخ الشاب » يصحبها فى نزهات طويلة يتسلق فيها الجبال والتلال المجاورة فى شغف ونشـاط يحسـده عليهما الفتيان ، ثم يعود من نزهات الغرام فيعتكف وحده فى غرفة مكتبه ليكتب : « السنة الرهيبة » (١) ، وقصـائد لديوانه « أسطورة القرون » الجديدة

وكانت ذكريات ماری مرسييه الدامية وقصصها الحزينة التى كانت ترويها للكاتب ، توحى اليه بأشـعار رائعة كئيبة

---

(1) L'Année Terrible

يتحدث فيها عن فتيات شابات يقابلن الموت فى احتقار متعال
وليس هناك شك فى أن علاقته بماري مرسييه ، نشطت روحه الى درجة عجيبة ٠٠ حتى أنه استغرق فى عمل متصل طيلة شهرين كتب خلالهما مجموعة من أروع أشعاره ٠ وكان هوجو يكتب مذكراته عن مارى باللغة الاسبانية كى يجنبها غيرة جولييت وفضولها ، وأخيرا أعطى الارملة الشابة مبلغا من المال وأشار عليها بالـــذهاب الى « ألتويز » حيث فتحت هناك محلا لبيع القبعات ٠٠

وفى سبتمبر من عام ١٨٧١ ، تلقى هوجو برقية من صديقه بول موريس يخطره فيها بأنه قد استأجر له مسكنا بشارع لاروشفوكو لمدة عام ، وكان هوجو قد علم قبل ذلك بأن كاتبا يدعى اكزافييه دى مونتبان قد قدم طلبا الى « جمعية الكتاب المسرحيين » يطالب فيه بفصله من الجمعية ، فقرر العودة الى باريس وأرسل الى موريس يخطره بهذا القرار

ووصل هوجو الى باريس فى أكتوبر ، فبدا له عام ١٨٧١ـ ١٨٧٢ الى حد ما كئيبا كالحا ، وأحزنه أن يرى جميع المنازل التى عاش فيها من قبل قد تحولت الى كومة من الانقاض ٠ومع ذلك ، كان هوجـــو يصر على ان يذهب لزيارتها فى صحبة جولييت ٠٠

ولم يكن هناك شيء يستطيع أن ينتزع الكاتب من أحزانه غير العمل والنساء ٠ ان الحسان كن لايزلن يلعبن دوراً كبيرا فى حياته على الرغم من بلوغه السبعين من عمره !

***

وفى يناير من نفس العام ، تقرر اعادة عرض مسرحيتــه « روى بلاس » من جديد على مسرح أوديون ، فكان ذلك سببا

فى أن يصبح الكاتب مرة أخرى قريبا من الممثلات • يالتصاريف الاقدار ! ان الدور الذى كانت آديل قد فوتت على جولييت دروويه فرصة القيام به منذ خمسة وثلاثين عاما هو الآن من نصيب ساره برنار ، الممثلة الناعمة ذات الصوت الـــذهبى والعينين الواسعتين

كانت سارة تبدو أثناء البروفات كطفلـــة مدللة ، وكان لايروق لها أن تستمع الى الملاحظات الكثيرة التى كان يبديها « الاستاذ العجوز » أثناء التمثيل • ولكن هذا الاستاذ الذى كبح جماح عشرات من الممثلات غيرها جعلها تسير كما يشاء، ولكنها ما لبثت أن استلطفت هـــذا « الوحش » العجيب ، وكتبت فى مذكراتها تقول : « •• كان الوحش لطيفا خفيف الظل ورقيقا للغاية وخاصة مع النساء •• ان رقتـــه التى أبداها ، كانت لى بمثابة الاطراء لا التعالى والغـرور ، وهو انسان طيب مع المتواضعين • حقا انه لم يكن نموذجا للاناقة، ولكنه كان جذابا حلو الحديث حتى أن المرء ليفطن لاول وهلة الى أنه عضو سابق فى مجلس الاشراف • ولما كان يريد أن ينهر أحد الممثلين فانه كان يزجره بالشعر ••• وكنت أجلس ذات مرة أثناء البروفة على احدى المناضد وأنا أهز ساقى ، وفجأة رأيته يقف وسط الفرقة الموسيقية ويصيح فى قائلا :

ان ملكة أسبانيا المحتــرمة الشريفة لا تجلس هكذا بهذه الطريقة ! »

وفى ٢٠ فبراير عام ١٨٧٢ ، دون هوجو فى مذكراته هذه الملاحظة : « صالة المسرح ممتلئة عن آخرها • وكانت ساره برنار رائعة، وقد هنأتها •• » كما دون فى ٢٨ مارس من نفس العام : « لقد ذهبت الى مسرح أوديون ورأيت الآنسة ساره

برنار فى غرفتها الخاصة ، وكانت ترتدى ملابس التمثيل ٠٠»
وفى حفل عشاء أقيم فى مطعم بريبان بمناسبة نجـاح مسرحيته ، كان الكاتب الكبير محاطا بعدد من النساء الحسان من بينهم ساره برنار التى قالت له فى صوت يفيض رقـة وأنوثة : « هيا قبلنا جميعا ٠٠ وأبدأ بى أنا ! » ٠ فلما فرغ هوجو من تقبيل الحاضرات جميعا ، أضافت ساره تقول : « والآن ، فلتختتم بى أنا ! »

هذا ، وقد سجل هوجو فى مذكراته فقرات يفهم منها أن ساره قد زارته أكثر من مرة ، وفى احدى هذه الفقرات كتب يقول : « إنها لن تحتمل ٠٠ » ـ ترى أكانت ساره ترغب فى نفس الشىء الذى كانت تتمناه الارملة الشابة مارى مرسيبيه؟ لقد كتبت بعد ذلك فى مذكراتها : « تأجل السفر ،والسبب الحقيقى فى ذلك هو خوفى من أن أسبب إزعاجـا لفيكتور هوجو ٠٠ اننى مريضة وعصبية وثائرة بسبب أنانية الناس وغبائهم ، وسوف أبذل غدا آخر محاولة ٠٠ »

**

مغامرة جديدة

مغامرة جديدة

وكان هناك عدد كبير من الممثلات والاديبات الناشـــئات وسيدات الصالونات ، يعرضن أنفسهن على الكاتب الشـيخ الذى كان يتدفق شبابا وحيوية . وكان العاشق الرومانتيكى لايستثنى منهن واحدة ما دام الجمال من صفاتها

أما ملكة الساعة ، فكانت « جوديت جوتييــه » ، (١)وهى حسناء ذات جمال رائع وفتنة طاغية ، تملك ثروة من الشعر الفاحم والرموش الطويلة ..

وكانت جوديت شابة فى الثـانية والعشرين من عمرها ، رشيقة القوام ، وإسعة العينين ، وردية البشرة ، يمتزج فى نظراتها السحر بالخمول المثير . وكان هوجو يعرف جوديت ويغازلها منذ أن كان فى بروكسل حيث كانت مع زوجهـــا « كاتول مانديس » . وفى عام ١٨٧٢ ، التقيا فى باريس من جديد فحدثته جوديت كثيرا عن والدها الذى كان يعـــانى مرضا خطيرا فى القلب ، وكان مضطرا مع ذلك الى مواصـلة الكتابة فى سبيل العيش

وعرض هوجو مخلصا أن يأخذ الوالد المريض معه الى جزيرة جيرنيزى ، ولكنه حين علم أن هناك خطورة على حيـــاته من السفر ، لم يهدأ حتى حصل له على معاش

وفى ١٢ يوليو عام ١٨٧٢ كتب هوجو لجوديت هــــذه القصيدة :

---

(١) ابنة الكاتب الناقد تيوفيل جوتييه المعروف باسم « تيو الطيب »

« ان الموت والجمال شيئان عميقان »
« وفيهما من الظلال وزرقة السماء الكثير »
« انهما شقيقان في العنف وفى الخصوبة »

***

« وفيهما نفس اللغز ونفس السر •• »
« آه ! يا جوديت ! •• ان مصيرينا قريبان جدا الواحد من الآخر »
« حتى أن الناس حين يرون وجهي ووجهك »
« يعتقدون أن الهوة الالهية كلها موجودة فى عينيك »

***

« إنني أشعر فى روحى بهوة كلها نجوم »
« ونحن قريبان ياسيدتى من السماء »
« لانك جميلة وأنا عجوز •• »

كان هوجو فى ذلك الوقت فى السبعين من عمره ، وكانت جوديت كما قلنا فى الثانية والعشرين ، ولكنها كانت له •• انها وعدت بأن تهب له نفسها فى رقة ، وهى تذكره ببيت من احدى قصائده فى مسرحية روى بلاس : « أيها الاستاذ ••إن رجلا هناك فى الظل تحت قدميك •• انه ينتظر ! »

وأخيرا كتبت اليه تقول : « لقد فكرت • اننى مصممة ، وشكرا •• جوديت •• »

وكانت غزوة مليئة بالنشوة ، حتى أن هوجو تمنى لو أنها رحلت معه الى « منزل المدينة العالية » ، فقد كان يفكر جديا فى العودة الى جيرنيزى ويحن اليهـــا • وكانت جولييت من ناحيتها تلح عليه فى ذلك بدافع من غيرتها وعشقها للهـــواء الطلق ، وكثيرا ما كانت تقول له : « آه ! جيرنيزى •• يالها

من جزيرة جميلة ·· » وكان هوجو نفسه يحن الى ذلك :

« بما أننى أصبحت غريبا وسط المدينة ·· »

« وبما أننى أهذى الى هذه الدرجة لما أفكر ·· »

« فلا نصر هناك غير نصر الحب ·· »

الواقع أن هوجو كان لايجد لنفسه فى ذلك الوقت مكانا من حوله ليجعل الرحيل أمرا مرغوبا فيه · وما ان حل شهر أغسطس عام ١٨٧٢ حتى أصبح هوجو يتمنى أن يعـــود الى المنفى « ذلك المنقذ الامين » !

وفى اليوم السابع من نفس الشهر ، كان هوجو مرة أخرى فى طريقه الى جزيرة جيرنيزى

***

نحن الآن من جديد فى « منزل المدينة العالية » وأمامنـــا الامواج العالية والمناظر المكشوفة التى يغمرها الضـــوء ··

وهاهى ذى جولييت مرة أخرى تقف كل صــــباح ، على عادتها فيما مضى، لتترقب الاشارة المألوفة ، وتحس بالسعادة إذ ترى حبيبها يسير فىعمله بخطوت واسعة ،ويكتب القصائد لاسطورة القرون الجديدة ، ويمضى قدما فى تأليف رواية من أجمل رواياته « ثلاثة وتسعون » (١)

وكان يشـــيع فى أرجاء المنـــزل ، فى أول الامر ، جو المرح والوئام ، بفضل وجود أليس وولديها حفيدى الكاتب الشيخ، ولكن الارملة الشابة كانت لاتطيق العيش تحت ســـــيطرة جولييت ، هذه العجوز التى يحبها والد زوجهـــا · وكانت جولييت بدورها تبادلها نفس الشعور ، فقررت أليس بعـــد

(١) Quatre-vingt-ireize

شهر واحد أن تعود مع جورج وجـــان الى باريس ٠ وكتبت جولييت الى هوجو تقول : « ان الالم يعصر قلبى كلما فكرت فيما سيثيره فى نفسك رحيلهما من حزن ، اذ أننى أشعر على الرغم من حبى لك بأنهذا الحب لايستطيع أن يمنعك من أن تكون أشقى الآباء جميعا فى هذه اللحظة ٠٠ »

وفى أولأكتوبر ركبت أليس الباخرة معابنها جورجوابنتها جان ، وسافر معهم أيضا فرانسوا فيكتور الذى كان مريضا بالسل ٠٠ وكتب هوجو فى مذكراته يقـــول : « لقد ركبوا العربة ٠٠ وبينما كنت أقبل جان ، قالت لى وقد ارتســـمت علامات الدهشة على محياها : لماذا لا تركب معنا ياجدى ؟ لقد رحلت العربة ، وهأنذا أشيعها ببصرى حتى ناصية الشارع ٠٠ لقد اختفى كل شيء ٠٠ انه تمزق عميق ! »

وفى ١٥ أكتوبر يقول : « لم تأتنى أية انباء من صغارى ! وان عدم رؤيتى لهم سيختزل حياتى ، وليس فى ذلك ضرر كبير ٠٠ »

وكتب فى ٢١ نوفمبر :

« أبدأ اليوم فى كتابة «ثلاثة وتسعين» ، وعندى فى غرفتى صورة شارل وصورتى جورج جان. وقد اخذتمحبرةالبللور التى اشتريتها من باريس ، وفتحت زجاجة جديدة من الحبر ورزمة من الورق الفاخر اشتريتها خصيصا لهذا الكتـــاب ، وريشة قديمة جيدة وبدأت فى كتابة أول صفحة ٠٠ »

وفى ١٦ ديسمبر : « سأكتب ابتداء من الآن دون توقف وبلا مسودات ان شاء الله ٠٠ »

وكانت الكتابة بلا مسودةهى طريقته أيام «أحدب نوتردام» وقت أن كان فى الثلاثين من عمـــره ٠٠ والآن ، هاهو ذا فى

السبعين ولكنه لايقل نشاطا ولا مثابرة • أن الشيخ يقف أمام منضدة الكتابة عشر ساعات كاملة لا يجلس خلالها آلا لماما ، اذ كان من عادته ألا يكتب الا واقفا وعلى مكتب عال كقمطر المدارس

وكانت جوليينت أثناء ذلك تعجب أشد الاعجاب بنشاط سيدها واستغراقه في العمل ، وكانت تكرر نفس الدعاء الذى قاله من أجلها فيما مضى :

« يا الهى ! اجعلنا نعيش معا على الدوام ! لاتجعله يتخلف عن أى يوم فى حياتى ولا عن أية لحظة من خلودى •• ادمجنا معا، ولتجعل منى فى الحياة وفى الآخرة امرأة نافعة محبوبة : نافعة لحبيبى ومحبوبة منه • أنقذنا يا إلهى ، وطهر نفسينا ، واجمع بيننا •• »

شجرة البلوط

وكانت جولييت قد أقدمت على عمل لا ينطوى على الحذر اثناء وجودها بباريس فى مارس عام ١٨٧٢ ، إذ استعانت بفتاة لغسل الثياب فى الثمانية والعشرين من عمرها تدعى الآنسة بلانش ! وكانت بلانش ذات جمال من ذلك النوع الصاعق الخطير ، ولم تكن الى هذا بغير ثقافة ، فقد كانت تحفظ كثيرا من الاشعار ولا سيما اشعار « مسيو فيكتور هوجو » وتجيد الكتابة والاملاء بخط جميل ، ولذا كانت « مدام دروويه » التى أنهكتها اعمال السكرتارية تفكر فى أن تعتمد عليها فى اعادة كتابة قصائد وروايات هوجو

وكانت بلانش فتاة عاقلة ذات صفاء خال من الميوعة ، ورآتها جولييت عند أصدقائها أسرة لانفان فى باريس ، ففكرت فى أن تأخذها معها الى « منزل المدينة العالية » ، دون أن يخطر ببالها أنها تعرض بذلك سعادتها هى بنفسها للخطر !

***

ولدت بلانش فى عام ١٩٤٨ من والد وام مجهولين ، فتربت عند « آل لانفان » الذين عاملوها معاملة طيبة ــ وها هى ذى الآن قد أصبحت فتاة نضرة ذات عينين سوداويين ، وقوام فاتن ، تجمع حركاتها وايماءاتها بين الجد والاتزان والرشاقة الآسرة

وهكذا ، وجدت هذه الفتاة نفسها ذات يوم فى « منزل

المدينة العالية » بمفردها مع عجوز البحر الذى بدأ يؤثر عليها بسحره « الذى لا يقاوم » ! ولما كان الاعجاب طريقا الى الحب ، وبما أن مسيو هوجو تتوفر فيه صفات نادرة هى خليط من المجد والعبقرية والحيوية العجيبة ، فكيف يمكن أن تصمد معجبة يافعة كهذه أمام كل هذا الخليط من عوامل الاغراء ؟

وحاول هوجو من ناحيته الا يقع فى الاغراء فترة من الوقت، ويدلنا على ذلك ما كتبه فى مذكراته فى ٢٧ يناير عام ١٨٧٣ ليقول : آه .. بلانش ! انها خطر كبير ، فكن على حذر انني لا اريد بها سوءا ولا لمالكة قلبى ... » ومع ذلك فقد كانت الفكرة تعيش فى خاطره على الدوام :

« كنا نحس بأننا ننزلق على المنحدر فى غموض .. »

« ذلك المنحدر الذى يؤدى الى مكان لا نعلمه .. »

« يؤدى غالبا الى النار .. ولكنه يمر بالجنة »

« ولكنها كانت تفكر فيما كنت أفكر فيه .. »

وكان هوجو يناديها باسم « ألبا » ويكتب من أجلها أجمل القصائد .. والواقع أن بلانش قد دافعت عن نفسها فى بطولة على الرغم من اعجابها الشديد بعجوز البحر العبقرى ، وقد دون هوجو فى مذكراته هذه الفقرة التى تخول لنا أن نستنتج مثل هذا الاستنتاج : « لم تسمح لى الى الآن بأن أرى سوى جزء من كتفها ... » ، ولكن الفتاة المسكينة استسلمت آخر الامر ، وأعطت نفسها للاستاذ بعد شهور من المقاومة . لقد منحته نفس السعادة التى كانت تمنحها اياه جولييت من قبل ، وكان يقول ذلك للفتاة ، كما كان يقوله لكل من عرفهن من النساء اللاتى أبدين نحوه بعض المقاومة !

ولم يكتب الاديب الشيخ فى حياته قصائد ملتهبة ، كما كتب فى هذه الفترة من حياته .. ان أنتصاراته الغراميسة دائما تشحذ قواه ، وتخلق فى نفسه مزيدا من القدرة على الابتكار . والان ، ها هى ذى النزهات الجميلة التى يقوم بها فى رفقة بلانش بين حقول جيرنيزى تعيد الى القمح نضجه وجماله !

ومن سوء حظ هوجو أن جولييت ، وهى تتميز بحاسة قوية فى شم « رائحة » الكوارث ، ما لبثت أن أدركت ما يدور فى « منزل المدينة العالية » ، على الرغم من انه كان لا يزال يرسل اليها بتراتيله المعتادة : « ان فمى يقبل قدميك ، وروحى تقبل روحك ... »

ولكن هذه الروح التى لم تثق فيه أبدا ، حاولت أن تستخلص اعترافا من الفتاة بالخيانة .. وبكت بلانش كثيرا بين يدى مدام درورويه ، وأكدت لها وهى تعتذر أنها مخطوبة .. فكان من الطبيعى والحالة هذه أن ترد عليها مدام درورويه قائلة : « تستطيعين أذن أن تعودى الى خطيبك ! »

وكتب هوجو فى مذكراته بتاريخ ١ يوليو ١٨٧٣: «ستخرج بلانش من عند جولييت ، وستحل محلها « هنرييت مرفان» فى ١٥ يوليو ، وسترحل بلانش هذا الصباح عائدة الى باريس عن طريق جزيرة جرزى ... »

وفى نفس اليوم ، كتبت اليه جولييت تقول : « اننى أجمع فى انفعال حاجيات بلانش المسكينة استعدادا للرحيل ، مع أن لدى من الاسباب ما يجعلنى لا آسف على ذلك .. وعلى أية حال فهى نفسها تتمنى أن ترحل ، ووجها يشرق بالسرور فى هذه اللحظة ، وأرجو لها ان تجد السعادة فى باريس ،

واننى لعلى استعداد لمعاونتها ما دام ذلك لا يكون على حساب سعادتى ...

وربما كانت بلانش صادقة فى زعمهـــا أنهـا ستتزوج فى باريس ، وربما كان هوجو مخلصا كذلك حين وعد جولييت واقسم لها أنه لن يعود الى رؤيتها من جديد ، ولكن هل يبر المرء بوعده على الدوام ؟

***

وكانت جزيرة جيرنيزى تبدو لهوجو بغير « ألبا » كئيبـة موحشة ، خاصة وأن الانباء كانت تأتيه بأن حالة ابنه المريض فرانسوا فيكتور قد ساءت كثيرا . وفى الحادى والثـلاثين من يوليو - أى بعد انقضاء شهر على رحيل بلانش - غادر هوجو مع جولييت جزيرة جيرنيزى عائدين الى باريس

وما كاد هوجو يصل الى باريس ، حتى ذهب من فـــوره لزيارة فرانسوا فيكتور ، فوجده شاحب الوجه فى حـــال شـــديدة من الضعف والهزال ، وكانت اليس الطيبة القلب تحيطه بعنايتها ..

وأقام هوجو بشارع دى تورنيل الذى يطل على رصيف نهر السين ، وذهب لرؤية بلانش بمجرد أن استقر فى مقامه الجديد بالرغم من قسمه لجولييت ..

وكانت جولييت المرتابة قـــد استعانت أثناء ذلك بوكالة للمباحث الخاصة لموافاتها بأخباره ، وفى ١٨ سبتمبر عـــام ١٨٧٣ اكتشفت خيانته ، فما كان منها هذه المرة الا أن فرت هاربة بعد أن كتبت له خطاب وداع ..

وفى اليوم التالى دون هوجو فى مفكرته : « كارثة خطـاب جولييت .. قلق مزعج .. ليلة مزعجة .. »

وأثار هرب جولييت فى نفس هوجو يأسا وقلقا عظيمين ، فراح يبحث عنها فى كافة أرجاء العاصمة ،ويرسل البرقيات الى الامكنة التى يحتمل أن يكون فيها ، وقد جاء فى مفكرته: من ٢٢ الى ٢٤ سبتمبر ، ثلاثة أيام من القلق والهواجس رأيت فيها كل أنواع العذاب ،ومع ذلك فيجب على أن أحتفظ بمظهرى الطبيعى ، وبالبرود اللازم لحفظ السر .. اننى أحتمل ولكن قلبى يتحطم ..

وهدأت ثائرته بعض الشىء ، حين علم أن جولييت شوهدت فى بروكسل ، فصاح متهللا : « حسنا ! ان هذا يمكن أن يلقى بصيصا من الضوء ... »

واستطاعوا أخيرا أن يعثروا على مكانها ، وقبلت أن تعود الى باريس . وسجل هوجو فى مفكرته بتاريخ ٢٦ سبتمبر: « لن أحضر البروفة النهائية لمسرحية مارى تيودور لئلا أتخلف عن استقبال جولييت بالقطار الذى يصل فى التاسعة وخمس دقائق .. ذهبت الى المحطة قبل الموعد بخمسة وأربعين دقيقة ، ولم أكن قد تناولت أى طعام فاشتريت رغيفا وأكلت نصفه .. وصل القطار فى الموعد المحدد ، ومرة اخرى رأى كل منا الاخر ، وكانت سعادتى برؤيتها لا يعادلها الا ما كنت أشعر به من يأس ... »

والواقع أن حب هوجو لجولييت كان يختلط بحنان دفين، والدليل على ذلك أنه حينما اعتقد أنه قد فقدها الى الابد ، كتب فى مفكرته يقول : « ان روحى قد ذهبت » ، ولكن جولييت من جانبها لم تكن تستطيع أن تتصور مقدار ماوضعته الطبيعة فى الشيخ العجوز من قوة عجيبة كانت تجعله شابا فى الوقت الذى كانت ترى فيه نفسها تذوى وتذبل . وكانت قد كتبت تقول له فى خطاب الوداع : « كل ما أعرفه أننى لن

أستطيع أن أقاوم هذا الصراع الذى يتجـدد على الدوام : صراع حبى العجوز ضد هذه الاغراءات الشابة التى تعـرض نفسها عليك .. ولست أريد أن أنغص عليك حظك الطيب، ولكننى لا أستطيع أن أمنع نفسى من أن أشعر بأن هـــذا الحب الشائخ ضئيل أمام كل أولئك الفتيات اللاتى يناديك كما ينادي الدجاج الديك ، فى الوقت الذى تنهك فيه حمامتى الرمزية المسكينة نفسها فى الهديل .. ولهذا ، فقد قررت أن أضع مفتاح قلبى تحت عقب بـابك وأن أذهب لاهيم على وجهى ... »

***

ولكن القدر كان يدخر للكاتب الشيخ مفاجأة جـــديدة ، اذ مات ابنه فرانسوا فيكتور فى ٢٦ سـبتمبر عام ١٨٧٣ ، فكتب فى مفكرته يقول : «هاهو ذا تصدع ضخم يصيب حياتى من جديد ، اذ لم يعد لى سوى جورج وجان ... »

ودفن فرانسوا فيكتور بعد تشـييع جثمانه فى جنـــازة مدنية كشقيقه شارل ، وكتب «جوستاف فلوبير» الى «جورج صاند » يصف الجنازة فقال : « ياله من جمهور هائل ! ومع ذلك فلم تكن هناك أقل فوضى أو صيحة واحدة .. ان الاب هوجو المسكين كان محطما تماما ، ولكنه كان يحتمل الالم فى شجاعة نادرة .. حتى أننى لم أستطع أن أمنع نفسى من أن أقبله ... »

وعلى الرغم من كل تلك الضربات المتلاحقة ، فقـــد ظل الاديب الشيخ صامدا كشجرة البلوط العتيقة .. انه يعمل بلا كلل ، ولا ينى بجود فنه . يقول بول فاليرى : « يالهـــا من أشعـار عجيبة عمـلاقة تلك التى الفها هوجو فى الفترة الاخيرة من حياته ! انها أشعار لا تضارعها أشعار أخـــرى فى ضخامتها ، ودسامتها واتساقها ، وعظمة ايقاعها ونغماتها»

العودة

العودة

فى عام ١٨٦٩ ، كانت الحال فى فرنسا تنبىء بقرب وقوع أحداث هامة فى الحياة السياسية قد تؤدى الى تغيير أساسى فى نظام الحكم ..

وكان نفوذ هوجو وقتئذ فى باريس قد بلغ حدا كبيرا ، حتى أن البعض كانوا يظنون أن عودته خليقة بأن تؤدى الى قلب نظام الحكم .. !

وكتب هوجو فى مفكرته فى ٩ اغسطس عام ١٨٧٠ يقول :

« سأضع توا كل مخطوطاتى فى الحقائب الثلاث ، استعدادا لان أؤدى واجبى أمام الاحداث ... »

وفى ١٨ أغسطس توجه هوجو الى المفوضية الفرنسية فى بروكسل ، وقابل القائم بالاعمال وأخبره بأنه يريد أن يعود الى فرنسا ليؤدى واجبه ، ولكنه لا يعترف بالامبراطورية .

وكتب هوجو فى مفكرته فى اليوم التالى يقول :

« لقد عاملنى الرجل فى أدب كبير ، وما ان رآنى حتى ابتدرنى قائلا : اننى أحب قبل كل شىء أن أحيى شاعر القرن العظيم .. ثم طلب منى أن أنتظر حتى الليل ، وأخبرنى بأنه سيرسل الى جواز السفر فى البيت »

وأخذت صحف بروكسل تعلن عن عودة هوجو الى بلاده ، وأطلقت عليه اسم « الاب المجند » .. وكتب هوجو الى ابنه فرانسوا فيكتور يقول :

« ولدى فيكتور .. اننى حزين لاننى لست معك هناك .

لقد بدأ كل شيء يتعقد من جديد ، ونحن هنا نراقب الحال ، ومستعدون للسفر على شرط ألا يقول أحد أننا عائدون لنجدة الامبراطورية ، لان هدفنا هو الاحاطة بها ، وسوف أخلص لهذا الهدف اخلاصا كبيرا . لقد أخبرونى بأنهم سيلقون القبض على لو عدت الى باريس ، ولكننى لا أعتقد ذلك ...»

***

واستسلم الامبراطور فى ٣ سبتمبر ، وفى الرابع من سبتمبر أعلن قيام الجمهورية ، وفى اليوم التالى ، كان هوجو واقفا أمام شباك التذاكر فى محطة بروكسل ، يقول لصارف التذاكر بصوت تهتز نبراته بالانفعال : « تذكرة الى باريس ... »

كان الاديب الشيخ يضع على رأسه قبعة من الجوخ ، وكان كيس نقوده معلقا فى كتفه بسير من الجلد . ونظر الرجل الى ساعته .. انها آخر لحظة له فى منفاه الطويل ثم التفت ــ وهو شاحب الوجه ــ الى كاتب شاب من أصدقائه يدعى جول كلاريتى ، وقال له :

ــ اننى أنتظر هذه اللحظة منذ تسعة عشر عاما

وركب معه فى ديوانه بالقطار شارل هوجو (١)، وزوجته أليس ، وأنطون بروست وجول كلاريتى ، وجولييت درووية

واجتاز القطار الحدود ، وكان هوجو يرى من خلال نافذته تلك السهول التى لم يرها منذ تسعة عشر عاما تلمع تحت ضوء القمر . وترقرقت الدموع من عينى الشيخ ذى اللحية البيضاء الذى غادر بلاده فيما مضى ، وهو لم يزل بعد فى أوج الشباب ..

ودخل القطار محطة الشمال بباريس فى تمام التاسعة

(١) كان شارل هوجو قد فر الى بروكسل فى ابريل عام ١٨٧٠ بعد أن حكم عليه بالسجن لمدة ستة أشهر أخرى

والنصف مساء ، وكان هناك جمهور لا يـــدركه الحصر فى انتظار الاديب الكبير الذى استقبل استقبالا يفوق الوصـف حتى أنه اضطر لان يخطب أربع مرات . وكان الناس يهتفون بحياته قائلين : « يعيش فيكتور هوجو ! » ، وكان هنـــاك آخرون يلقون قصائد من ديوانه « العقاب » فى حماس كبير

وحملته الجماهير على الاعناق تريد أن تذهب به الى قصر المحافظة ، ولكنه صاح قائلا :

ـ كلا أيها الاصدقاء ! اننى لم أحضر لازعزع حـــكومة الجمهورية المؤقتة ولكن لاؤيدها ..

ولما وصل هوجو الى شارع « فروشو » توقف أخيرا أمام بيت صديقه بول موريس ، حيث كان مقررا أن يقيم ، ثم قال للجماهير :

« لقد دفعتم لى فى ساعة واحدة ثمن عشرين عامـــا من المنفى »



فى شارع كليشى

فى ابريل من عام ١٨٧٤ ، أقامت الاسرة فى رقم ٢١ شارع « كليشى » ، وكان هوجو قد استأجر فى هذا الشارع بيتا من طابقين ، احدهما له ولأسرة ابنه شارل ، والاخر وبه غرفة الاستقبال تقيم فيه مدام دروويه

وكانت شقة هوجو بالدور الرابع ، ولكنه كان يصعد الدرج دائما دون ان يلهث على الاطلاق ، وحين آلمته اسنانه لاول مرة فى حياته أدهشه كثيرا أن يحدث ذلك !

وكان هوجو فى كل ليلة يستقبل اثنى عشر أو اربعة عشر ضيفاً على مائدته ، فقد كان دائم التشاؤم من رقم ١٣ ، وكان يحب ان يجمع حوله كثيرا من السيدات الجميلات . وحينما ياتى الضيوف ، كان المضيف يقف ليستقبلهم واحدا واحدا فى نشاط مرتديا رباط عنق من الحرير الاسود او الابيض تحت ياقة أنيقة منشاة ، وكانت مدام دروويه تقف الى يمينه وقد ارتدت ثوبا جميلا من القطيفة السوداء المحلى بالدانتيل ، وشعرها الابيض الجميل يتوج رأسها الرقيق ..

أما قائمة الطعام فكانت لاتكاد تتغير ، لان هوجو كان يحب دائما نفس الاصناف : سمك او حساء محار ، لحم مشوى ، كبدة الاوز ، و « جلاس » . وكان الاستاذ يتمتع بشهية

عجيبة . واذا ما فرغ الضيوف من العشاء ، ذهبوا للجلوس في غرفة الاستقبال ذات الابواب المبطنة بالحرير الاحمر

وعلى الرغم من أن مدام درووية ، كانت قد جعلته يقسم برأس ابنه الميت على قطع علاقته بمدموازيل بلانش ، إلا أن هذا القسم لم يحترم ، وظلت مواعيده معها تملأ مفكرته . وكان حب مدام درووية لا يزال يدور في نفس الدائرة المفرغة الاليمة : من جولييت درووية الى فيكتور هوجو في ١٣ يناير سنة ١٨٧٤ : « تبعتك بعيني حتى ناصية الشارع ، ولـكنك لم تلتفت لتشير الى اشارة صغيرة حنونا كما كنت تفعـــل قديما ، فعلام يدل ذلك ؟ اعتقـد انك تحسن صنعا لو أنك تخلصت رويدا رويدا من أولئك النسوة اللاتي يجرين وراءك ويحمن حولك كما تحوم الكلاب الجائعة ... »

وكان هوجو يستقل كل يوم عربة نقل الركاب ، ويذهب الى « حديقة النباتات » كي يتمتع على حد قوله « بالوحدة بين الجمهور » ، ولكنه في الحقيقة كان يذهب لمقابلة بلانش. ولكن غيرة مدام درووية وشكوكها كانت تتجـه الى جوديت جوتييه ، وكانت جولييت قد اخبرته بأنه ما دام لا يستطيع أن يكون مخلصا فيجب على الاقل أن يكون صريحا ، وقـــد وعدها هوجو بذلك !

وكانت جولييت من ناحيتها تفضـــل أن تكون جوديت جوتييه هي غريمتها لا هـــذه الفتاة المتواضعـة المجهولة « مدموازيل بلانش » ، فجوديت على الاقل هي ابنة شـــاعر وناقد كبير ، ولهذا فقد اخبرت هوجو بأنها لا تمانع في أن يراها ما دام يعتبرها ملهمته الجميلة ، ولكنها كانت تخبره في نفس الوقت بأن الرغبة في حد ذاتها خيانة . ونظرا لان هوجو كان

يشعر بأن صراحته تؤلم مدام دروويه ، فقد بعث اليهـــا مواسيا بهذه الاشعار الجميلة :

« أنت تغارين ؟ ممن ؟ وأنت تضطرين ؟ لماذا ؟ »
« انك النهـــار بلا ليل والحب بلا نهـــاية »
« أتخشين البهجـة التى سرعـان ما تزول »
« بهجة الازهار التى تولد فى الصباح الهارب »
« والتى لا تعطر البرارى الا لحظة واحـــدة ؟ »

***

كونى هادئة فى سمائك الزرقاء
فماذا يهمك وانك الضوء كله »
« أن يتوقف شـــــعاع لحظة
فى مروره باحـــدى الازهار »
« ان النجم فى كبد الســـــماء
لا يخشى الزهرة (١) »

ان سعادتها بهذه القصيـــدة كانت غامرة ، ولكن ذلك لم يحل دون أن تشعر فى أعماق نفسها « كأن شيئا مدببا يخترق قلبها من جهة الى أخرى » . ويااليت حبها هذا على ضخامته كان يجعله سعيدا ! لقد كتبت اليه جولييت تقول :

« انك تحب الغزل أيا كان نوعه حتى ولو كان عابرا، وهذا سبب،تمزق قلبك بل وحياتك كلها . ومهما ألقيت بسعادتك وسعادتى فى هذا البرميل الذى لا قاع له ، فانهما لن تكونا الا كنقطة فى محيط هذه اللذة التى تحب أن ترتشفها بنهم عجيب ..

---

(١) من قصيدة لفيكتور هوجو بعنوان « الى خالدة » « A une immortelle »

«انك لست سعيدا يا صديقى المسكين ، وأنا لست بأحسن حالا منك .. انك تقاسى من جرحى الحى الذى يتسع على الدوام لانك ليست لديك الشجاعة لتكويه نهائيا مرة واحدة. اننى أتألم بسبب حبى لك الذى يفوق الحد . وا أسفاه ! انك مصاب بداء عضال ، وكذلك أنا ... »

***

وفى بيت شارع كليشى، كان هوجو يستقبل بعض أصدقائه من السياسيين ، أمثال لويس بلان ، وجامبيتا ، وكليمونصو الذى اقترح عليه فى يناير من عام ١٨٧٦ أن يرشح نفسه لمجلس الشيوخ .. فانتخب عضوا فى الدورة الثانية ، ولكن جولييت كانت لا ترحب على عادتها باشتغاله بالسياسة ، وتندم على أيام المنفى السعيدة فى جزيرة جيرنيزى . وكتبت اليه جولييت تقول :

« آه ! كم أود من كل قلبى أن أستبدل بقصر فرساى ومجلس شيوخه بخطبائه الذين خلوا من القلب والروح منزلى الصغير فى جيرنيزى : منزل المدينة العالية .. »

وفى عام ١٨٧٧ ، استقبل هوجو فى مسكنه بشارع كليشى « دون بدرو » امبراطور البرازيل الذى عامل الاديب كما كان يتمنى أن يعامله ملوك فرنسا فى الماضى .. عامله على قدم المساواة ، اذ قال له وهو يصافحه فى حرارة وود : « اطمئن ، فانى خجول بعض الشىء ! » . ولما نادى هوجو حفيدته الصغيرة جان ، وقدمها للامبراطور بقوله : « مولاى .. أقدم لجلالتكم حفيدتى جان شارل هوجو ... » ــ أجابه الامبراطور قائلا : « ليس هنا الا صاحب جلالة واحد هو فيكتور هوجو ... » . وقبل الامبراطور دعوة من الشاعر

لتناول طعام العشاء فى بيته مع بعض ضيوفه العاديين كزائر بسيط

وكان هوجو يغادر منزله بشارع كليشى كل يوم بعد تناول الغداء ، فيذهب تارة إلى مدموازيل بلانش ، وتارة اخرى الى مارى مرسييه جنية نهر الاور التى لم ترق لها الحياة فى مدينة فياندن ، فجاءت الى باريس تطلب العون من جديد ! وكان هوجو يصطحبها للنزهة فى حديقة بوت شومان ، ويستقل معها ترام الاتوال الذى يوصل الى ميدان العرش . ومن الطريف أن هوجو كتب ذات مرة بمناسبة عيد رأس السنة خطابا الى مدير « مجلس ادارة شركة ترام الركاب العامة » يقول فيه :

« اننى عادة أركب ترام الاتوال - ميدان العرش ، وكذلك أومنيبوس الباتينول الذى يوصل الى حديقة النباتات ، فاسمح لى أن أرسل الى سيادتكم مبلغ خمسمائة فرنك لتقوموا بتوزيعه على سائقى وكمسارية هذين الخطين ... »

وفى يناير عام ١٨٧٧ ، وبعد ترمل دام ست سنوات ، أخبرته أليس بعزمها على الزواج من ادوارد لوكروآه نائب مقاطعة بوش دى رون . وعاد فيكتور هوجو وجولييت من جديد الى منزل المدينة العالية بجيرنيزى فى يوليو من عام ١٨٧٨

وعلى الرغم من بلوغه السادسة والسبعين، كانت جولييت كثيرا ما تضبطه وهو يخفى فى جيوبه بعض الخطابات وقت وصول البريد ، وحينئذ كانت تنتابها نوبة من المزاج الاسود ، فتفتش أدراج مكتبه وجيوبه وتبحث فى مذكراته الخاصة . وكانت تتوسل اليه فى رسائلها اليومية ان يحترم نفسه ،

وفى ٢٠ اغسطس من نفس العام كتبت اليه خطابا مؤلما تقول فيه :

« ان « ركوع » روحى الابية أمام روحك ، موجه اليك كرجل عظيم لا الى الحيوان الساقط الذى ليس أنت .. ان مجدك الذى يبهر العالم يجب أن يضىء حياتك ، ويجب أن يكون غروب شمسك مقدسا ومبجلا ، وكم أود لو أجود بما تبقى لى فى الحياة من أجل حمايتك من هذه الاخطاء التى لا تليق بجلالة سنك وعبقريتك ... »

وكان هوجو يغضب من هذا الكلام ولا يعيره أى اهتمام ، وكان يلقب جولييت ساخرا : « بالمدرسة » ، وفى نفس الوقت كان لا ينفك يقول لها :«اننى أشعر بأن روحى ملك لروحك».

ولكن جولييت كانت تظل حانقة ومصدومة معظم الوقت ، وكان أقل شىء يمكن أن يدفعها الى الشجار . وكان ينتج عن هذه المناقشات والمشاجرات حالة من التوتر العصبى ، فيصب المريض الذائع الصيت جام غضبه على من حوله من الاصدقاء والمقربين

وذات صباح ، نشبت بينهما أزمة شديدة بخصوص كيس نقود يحتوى على خمسة الاف من الفرنكات الذهبية ، عثرت عليها مدام دروويه فى درج بمكتبه اثناء احدى حملاتها التفتيشية، وكان السؤال القاسى الذى وجهته اليه : « ما هى الجهة التى سيرسل اليها هذا المبلغ ؟ » . وكثيرا ما كانت تنشب بينهما المشاجرات بسبب مذكرات تعود الى خمس سنوات مضت !

وذات ليلة بلغها انه كان يتنزه فى شارع كونيتر ، وهو شارع الحب مقابل المال ، وكانت ثورة عارمة صممت بعدها مدام دروويه على ترك هذا الشيخ الذى لايتوب ، والذهاب لقضاء

بقية أيامها عند ابن شقيقتها لويس كوخ ، ومع ذلك استقلت معه الباخرة عائدة الى فرنسا فى ٩ نوفمبر عام ١٨٧٨ !

وفى باريس استأجر هوجو منزلا صغيرا فى شارع « أيلو » بالقرب من أليس وزوجها لوكروى وحفيديه جورج وجان ، واقامت جولييت معه فى المنزل بالطابق الاول ، ولكنها سرعان ما نقلت نفسها الى الدور الثانى فى غرفة مجاورة للغرفة التى يعمل فيها هوجو ..

وكانت جولييت على الرغم من ضعف صحتها الشديد ، تحب أن تقوم بدور سيدة البيت وخاصة بعد زواج اليس على الرغم مما كانت تلاقيه فى ذلك من مشقة بالغة ، وكان هوجو قد اذن لها بأن تفتح خطاباته التى تأتيه على شارع ايلو كى يبعث بشيء من الثقة والطمأنينة فى نفس صديقته القلقه ، ولكن رسائله « السرية جدا » كانت تصله عن طريق صديقه بول موريس

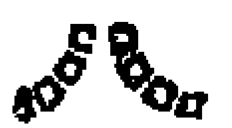
والتجأت جولييت الى لوكروى زوج اليس كى يساعدها فى اقناع هوجو بأن يقطع علاقته بمدموازيل بلانش ، فلجأ لوكروى الى طريقة طريفة .. اذ قابل بلانش واخبرها أن فيكتور هوجو قد يموت فجأة بين ذراعيها لانه مصاب باحتقان فى المخ . والواقع أن هوجو كان قد أصيب فعلا منذ بعض الوقت باحتقان بسيط فى المخ ، غير أن لوكروى بالغ فى ذلك وأكد لها أنها ستقتله ان لم تبتعد عنه ، فثار الرعب فى قلب الفتاة ، ووعدت بألا تقابله بعد ذلك أبدا . وبعثت اليها جولييت مبلغا كافيا من المال ، ونصحتها بأن تتزوج ، كما وعدت الفتاة بأن تحصل لها على عنوان أسرة لانفان التى كانت ترفض أن ترى

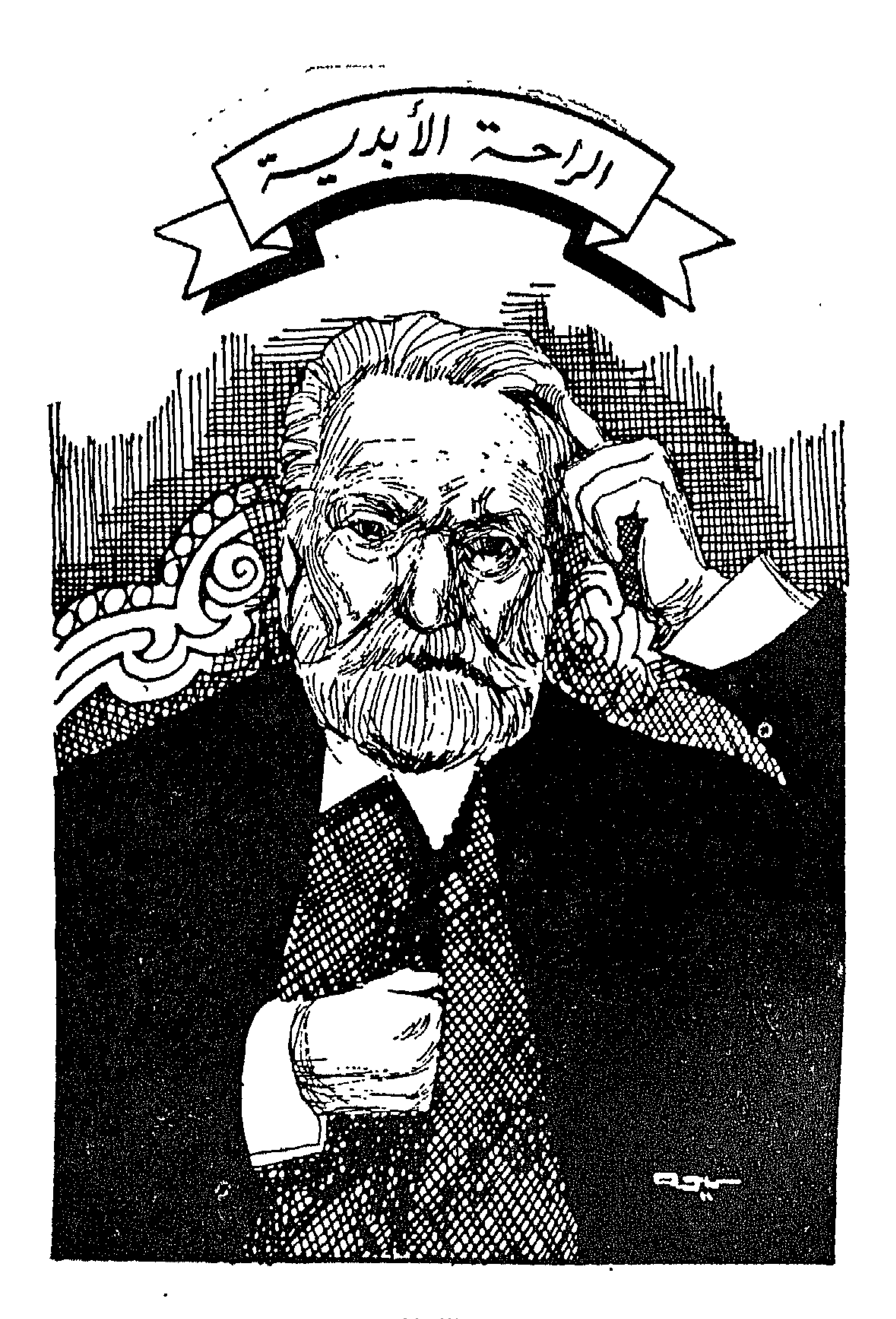
هذه المذنبة منذ مغامرتها فى جـزيرة جيرنيزى . وتزوجت الفتاة بعد ذلك بالفعل ، وكتب هوجو فى مفكرته بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٨٧٩ يقول :

« تزوجت بلانش فى يوم ٢ ديسمبر فى بلفيل ، وقد عرفت ذلك من خطاب الدعوة الذى وصلنى » ..

وبعد ابعاد مدموازيل بلانش ، تزاحمت الكثيرات حـــول الشاعر بغية أن يأخذن مكانها . وكان من بينهن جان ايسلر ، ومدموازيل اديل جالوا ، ومدام دى فيتراك أرملة لوساج التى تكتب الشعر ، والتى تتمنى أن ترث الاديب الشيخ ولا تطلب سوى المنضدة والفراش بدون حب . وبخصوص هذه السيدة الاخيرة كتبت جولييت لهوجو تقول :

« انها شاعرة ، وهى تعبدك ، والبقية تأتى .. أرجو يارجلى الصغير العظيم أن تكف عن اجتذاب هذه السيدة اليك . ان من لدغه الثعبان يخاف من الحبـل ، والقلب الممزق يخشى الجروح الجديدة ، ولما كانت جروحى لا تزال تدمى بشدة .. فاننى أتوسل اليك ، مهما كانت جاذبية هذه المرأة ، أن تريحنى من هذا القلق الذى تسببه لى .. »




الراحة الأبدية

الراحة الأبدية

فى السادس والعشرين من فبراير ١٨٨١ بلغ هوجو الثمانين من عمره واحتفلت فرنسا بذلك احتفالا وطنيا !

ففى شارع أيلو حيث يسكن هوجو ، أقيم قوس كبير للنصر ، ودعى الشعب الباريسى للمرور من تحته أمام الكاتب الكبير .
ووقف هوجو بشرفة مسكنه بين حفيده جورج وحفيدته جان ، يشاهد والدموع فى عينيه مايزيد عن ستمائة ألف من المواطنين يمرون أمامه لتحيته . وكان هوجو يقف بالشرفة كل يوم ساعات طويلة ليتقبل هذه التحية الرائعة غير مبال ببرد فبراير .
وأرسلت من الاقاليم الاف من باقات الزهور للمشاركة فى الاحتفال بالشاعر العظيم ، وكان جول فيرى رئيس مجلس الوزراء قد زاره فى بيته فى اليوم السابق ، لتهنئته بهذه المناسبة تهنئة رسمية ، كما صدر قرار باعفاء جميع تلاميذ المدارس وطلبة المعاهد من العقوبات المدرسية الموقعة عليهم تكريما لهذه المناسبة !

وحينما دخل هوجو الى قاعة مجلس الشيوخ فى الاسبوع التالى ، وقف جميع الاعضاء ودوت أكفهم بالتصفيق . وفى شهر يوليو من نفس العام ، أطلق اسم هوجو على الشارع الذى يقيم فيه

واستمرت هذه الاحتفالات أياما متتالية بصورة لم يسبق لها نظير من قبل !

***

فى سبتمبر من عام ١٨٨٢ ، سافرت جولييت مع فيكتور

هوجو الى بلدة « فولى لى روز » باقليم نورماندى لزيارة صديقهما بول موريس ، وما ان عادا الى باريس حتى أحست جولييت بألم مروع اضطرها الى ملازمة الفراش ، وقرر الطبيب أنها مصابة بسرطان فى المعدة

وسرعان ما هدت آلام المرض الخبيث قوى المرأةالمسكينة ، فلم يعد يتبقى من جمالها النادر الا حنان العينين وحلاوة الفم ..

وكانت جولييت تجلس الى جوار نافذة غرفتها ، كما سمحت لها حالتها بذلك لتراقب فى الجهة الاخرى من الشارع حديقة دير هادئة ، كانت تذكرها بطفولتها .. فكانت تبدوعلى محياها المتألم حينئذ علامات الشرود العميق ..

ولما أدركت جولييت أن النهاية أصبحت محتومة ، أبدت رغبتها فى أن تدفن مع ابنتها كلير ، والواقع أنها كانت تتمنى أن يقام لها ولابنتها قبران توأمان ، ولكن هوجو لم يعن بتحقيق ذلك ، وكانت قد كتبت اليه يومئذ تقول :

« على الرغم من أن ذلك قد لا يروق لك ، أرجو أن تسمح لى بأن أحققه ذات يوم دون أن أكون سببا فى تغيير شىء من عاداتك أو من عادات أسرتك .. وآمل الا ترفض ذلك ، وأن توافق عليه فى الحال لاننى أشعر بأن الوقت قد بات ضيقا » .

وها هى ذى الآن تعود الى هذه المسألة ، وتطلب منه كذلك أن يبحث معها أى الابيات ستنقش على قبرها « حينما لاتكون موجودة فى هذا العالم ... »

وذهبت جولييت مع هوجو الى « سان مانديه » لزيارة قبر ابنتها كلير زيارة أخيرة ، وانتهز هوجو هذه الفرصة فقام بزيارة ابنته اديل فى مستشفى الامراض العقلية ، وفى اليوم

التالى تلقى هوجو من جولييت هذه الرسالة المؤثرة :

« عزيزى المحبوب .. أشكرك لانك جئت معى امس الى سان مانديه . لقد كانت زيارة جميلة على الرغم مما اختلط بها من مشاعر حزينة ، اذ أحسست وأنا أمام قبر ابنتى بأن ندمى أقل مرارة . وآمل أن يكون كل منا قد عاد من حجه التقى ، وهو يشعر بأن قلبه ان لم يكن عامرا بالسلوى والعزاء — وهو أمر لم يعد ممكنا فى هذه الدنيا — فعلى الاقل خاضعا لارادة الله ... »

وفى الثانى والعشرين من نوفمبر عام ١٨٨٢ ، قرر اميل بيران مدير المسرح الفرنسى اعادة عرض مسرحية « الملك يلهو » التى كانت الظروف السياسية قد حالت دون عرضها فى مثل هذا اليوم من عام ١٨٣٢ .. وفى ليلة الافتتاح ، جلس جول جريفى رئيس الجمهورية فى مقصورته الرسمية ، بينما جلست مدام دروويه مع المؤلف الكبير فى المقصورة الخاصة بمدير المسرح ، وكادت سعادة جولييت بهذا التكريم تنسيها ماكانت تعانيه من الام .

والآن ، لم يعد عليها الا أن تعود الى بيتها لتواجه الموت..

وكانت جولييت على الرغم من ادراكها لخطورة حالتها لا تتحدث عن هذا الموت الا نادرا ، وذلك احتراما منها لرغبة صديقها الذى كان يرى مثل جوته أن « على المرء أن يغسل نفسه من أحزانه » ، وأن يدع الكآبة جانبا قبل أن يأتى للجلوس معه ..

وأثناء دعوات العشاء فى بيته بشارع ايلو ، كانت جولييت — وقد أصبحت هزيلة — تصر على الا يهتم بها أحد على المائدة . وحين كان هوجو يرفع كأسه ليشرب نخب صحتها ، وهو

يقول انه كان سعيد الحظ بأن قابلها منذ خمسين عاما ، كانت جولييت بدورها ترفع كأسها الذى كان فارغا على الدوام ، وكان الشاعر يقطع حديثه مع ضيوفه بين حين وآخر ليلتفت اليها وهو يقول :

ـ انك لا تأكلين شيئا يا مدام دروويه !

فكانت ترد عليه قائلة :

ـ شكرا ياسيدى ، فلست أستطيع أن آكل !

ومع ذلك ، فقد كانت جولييت تنهض من فراشها فى أى ساعة من الليل ، اذا ماسمعت أقل سعال صادر من غرفة صديقها لتعد له شرابا ساخنا ..

وفى أول يناير عام ١٨٨٣ ، كتبت اليه اخر خطاب لها فقالت :

« أيها العزيز المعبود .. لست أدرى أين يمكن أن اكون فى مثل هذا اليوم من العام القادم ، ولكننى سعيدة وفخورة بأن أوقع لك على وثيقة حياتى بكلمة واحدة : احبك . جولييت »

وفى نفس اليوم ، رد عليها هوجو قائلا فى خطابه الاخير :

« حين أقول لك : ليباركك الله ، فانها السماء .. واذا قلت لك : نامى نوما هادئا ، فهى الارض . ولما اقول لك : أحبك ، فهو أنا ... »

وكانت جولييت لا تستطيع أن تتناول أى طعام ، وكان هوجو يأتى كل ساعة ليقضى ساعة الى جوار فراشها ، فتنصت فى خشوع الى حديثه الذى كان يريد به أن يقنعها بانها لاتتألم ، وهى تحاول أن تبتسم . وظلت جولييت تحتفظ أمامه الى اخر لحظة من حياتها بهذا الطابع النبيل الذى ينطوى على البطولة

وفى الحادى عشر من مايو سنة ١٨٨٣ ، فارقت جولييت الحياة وهى فى السابعة والسبعين من عمرها . وقام فيكتور هوجو بدفنها فى مقبرة سـان مانديه الى جوار ابنتها كلير ، وتحت قطعة البلاط التى اختارتها بنفسها

ولم يستطع هوجو أن يغادرالمنزل ليسير فى موكب الدفن لشدة حزنه . وفى مقبرة سان مانديه وقف أوجيست فاكيرى يلقى خطبة الوداع التى بدأها بقوله :

« ان التى نبكيها اليوم كانت سيدة شجاعة .. » الى أن قال : « ولها الحق فى جزء من المجد لانها تحملت جزءا من الاختبار .. »

والواقع أن هذا كان هو نفس شعور هوجو .. انه كان قد أهدى الى جولييت فى فبراير من نفس العام بمناسبة يوبيلهما الذهبى صورة له تحمل توقيعه مع هذه العبارة : « ان خمسين عاما من الحب هى أجمل زواج » أليس هذا اعترافا عادلا بجميل تلك المرأة التى عاشت حياة مضطربة ، ضربت فيها مثلا رائعا للحب الذى ينطوى على تضحية تصل الى حد الانقاذ ؟ حقا ان الرغبة كانت قد ضعفت ، ولكن ارتباط هوجو بها لم يضعف أبدا .. انه باشراكه جولييت فى عمله منحها حياة لامثيل لها ، وكذلك كان الامر بالنسبة الى جولييت .. فاذا كان الناس قد تحدثوا كثيرا عن حب هوجو لنفسه أكثر مما ينبغى ، فليس هناك ما يقف فى صفه للدفاع عنه كحب هذه السيدة له . وكان هوجو نفسه يعرف ذلك ، فقد قال بعد موتها :

« سيضعون على قبرى كأنه مجدى العظيم .. »
« تلك الذكرى المعبودة التى حاربها بعضهم »

« ذكرى حب كان خطيئة ثم أصبح فضيلة .. »

ان جولييت دروويه لم تنظر أبدا الى المال .. وكان هوجو قد أودع باسمها سهما من أسهم البنك الوطنى البلجيكى ، وكانت قيمتها وقتئذ نحو مائة وعشرين ألفا من الفرنكات . (١) وكان يريد بذلك أن يؤمن حياتها فى العوز ظنا منه أنه سيموت قبلها . فلما رأى هوجو أنها ميتة لا محالة ، إستكتبها تحويلا برد هذه الاسهم إليه ، وجاء فى مفكرة جولييت بتاريخ ٨ سبتمبر عام ١٨٨١ : « اليوم أصبح مسيو فيكتور هوجو مالكا للسبعين سهما من اسهم البنك الوطنى البلجيكى التى كان قد منحها اياى فيما مضى بكرم كبير .. وهذا التحويل قد تم بمحض ارادتى أنا جولييت دروويه »

وفى مقابل هذا التحويل ، أراد هوجو أن يكافىء جولييت على عدم تمسكها بالمال ، فوضع باسمها فى البنك عشرين ألفا من الفرنكات لتعيش منها فى حالة وفاته قبلها ..

وكان يتبقى عند جولييت بعد ذلك عدد من السندات والتحف واللوحات الفنية والاحجار الكريمة والاوراق الثمينة وبيت باريس ، وكذلك الفضيات والمخطوطات والرسائل واللوحات الموجودة بهما تئول جميعها الى ابن اختها « لويس كوخ » ، ولكن جولييت كتبت فى البند الثالث من وصيتها تقول :

« فى حالة تمسك مسيو فيكتور هوجو بشراء كل التذكارات والاشياء التى ستئول الى ورثتى الشرعيين ، فاننى أريد من هؤلاء الورثة أن يوافقوا على بيع هذه الاشياء طبقا

(١) أى ما قيمته أربعا وعشرين الفا من الجنيهات فى عام ١٩٥٣ قبل تخفيض قيمة الفرنك الفرنسى

الرغبة التى يبديها هوجو .. »
وكتبت فى البند الرابع تقول :
« وفيما يتعلق بالقيم النقدية كالذهب والاوراق المالية التى لدى منها قدر كبير ، أعلن أنها كلها ملك لمسيو فيكتور هوجو الذى وضعها عندى كأمانة ، ويجب أن ترد اليه كاملة لانها ملك له .. »

ولكن هوجو لم يشتر شيئا أو يسترد أى شىء ، ولو أنه كان قد قدر له أن يفتش بين الاوراق الكثيرة المكومة فى غرفة جولييت لعثر بينها على رزمة الخطابات التى كانت « ليونى دونيه » قد أرسلتها فيما مضى الى غريمتها ، ولكن ليونى لم تشغل أبدا فى حياة هوجو ذلك المكان الذى شغلته هذه المحبة المتفانية ذات القلب النبيل ..

ومنذ اليوم الذى ماتت فيه جولييت دروويه ، لبست روح فيكتور هوجو وقلبه ثياب الحداد .. انه فقد حتى الرغبة فى الحياة ، فذات ليلة استيقظ من نومه فى الساعة الرابعة صباحا ليخط هذه الابيات التى نحس من خلالها أن هذا الشيخ العملاق قد أصبح كطفل عاجز ينوء بألم جسيم :

« آه ! يا الهى .. كيف أعبر بدونها السنين ؟ »
« انتزعنى من هذه الحياة .. خذنى يا الهى .. »
« لاتنتظر يوما ، ولا حتى ساعة واحدة ! »
« ماذا أفعل كي أموت ؟ »

الأعوام الأخيرة

في شارع فيكتور هوجو ، كان الشاعر مســـــتمرا فى استقبال ضيوفه فى بيته بحفاوته المعتادة ، ولكن كان يبدو عليه أنه بعيد عن كل شيء ٠٠ وبدأ جسم هوجو القوى يضعف آخر الامر ، وفى أغسطس من عام ١٨٨٣ رآه الكاتب « رومان رولان » لاول مرة فوصفه بقوله :

«كان هوجو حينئذ يبدو عجوزا أبيض الشعر غائر العينين، وخيل الى حين رأيته أنه خارج من أعماق القرون ٠٠ »

وفى باريس كان الناس يرونه يسير فى الشــــارع تحت الجليد المتساقط ، مرتديا حلة بسيطة ٠ وكان كثيرا مايردد قوله : « لقد أصبح معطفى هو شبابى ٠ »

وأحيانا أخرى كان يقول :

« اننى عجوز وعلى وشك أن أموت ٠٠ اننى سوف أرى الله ٠٠ أرى الله ؟ ياللشيء العظيم ! ماذا سأقول له ؟ اننى أفكـــر كثيرا فى ذلك وأحاول أن أستعد له ٠٠ »

وبقى هوجو مخلصا فى اعتقاده فى الله ، وفى خلود الروح ٠ وفى اليوم التـــالى لوفاة جولييت قام بزيارة قسيس يدعى « دون بوسكو » وتحدث معه فى هذه المسائل ٠٠

وكان هوجو يشعر بأن النهاية قد باتت وشيكة ، ويبدو ذلك فى هذين البيتين اللذين دونهما فى مفكرته :

« أيها الحزين ٠٠ أيها الاصم ٠٠ أيها العجوز »

« أيها الصامت •• »
« هيا اقفل عينيك •• »
« وإفتحهما نحو السماء •• »
وقبل وفاته ببضعة أيام ، ذهب هوجو لتناول طعام العشاء في مطعم « الاسد الذهبي » مع بعض أصدقائه من «الجمعية الادبية » ، وكان صامتا طيلة الوقت ، تبدو على وجهه أمارات الشرود ••
وذات مرة ، التفت هوجو فجأة نحو حفيده جورج ثم قال :
« الحب •• ابحث عن الحب ، وامنح السرور لغيرك وخذ السرور منه بالحب ، وبقدر ما تستطيع •• »
وظل هوجو حتى أخريات أيامه يتمتع بحيوية جنسية عجيبة ، ولكنه كان يدرك في هذه السن المتأخرة أن اللذة والمجد لايردان الموت :
« في الساعة التي يملأ فيها اسم الانسان القطبين •• »
« تراه يدفع من منكبيه بعيدا عن هذه الدنيا •• »
« ولا ينفعه في شيء أن يجري ليختبيء تحت الاحجار •• »
« إذ يأتي الله في النهاية ولا فائدة هناك •• »
« في أن يغلق المرء على نفسه الباب بالاقفال •• »
« فهذا الموت ليس بالشيء الذي يمكن تجنبه •• »
« وا أسفاه ! اننا نموت في عنف وسرعة •• »
« اذ يكفي أن يجمح الحصان براكبه •• »
« أويسقط على المرء حجر من الاحجار •• »
« وهو واقف الى جوار باب موارب في شهر يناير •• »
« وسرعان مانرى القسيس يدخل من الباب •• »
« بدلا من أن تدخل الفتاة •• »

خاتمة المطاف

خاتمة المطاف

وفى الثامن من مايو عام ١٨٨٥ ، أصيب فيكتــور هوجو باحتقان فى الرئة ·· وما ان ذاع النبأ فى أرجاء باريس حتى احتشد حول بيته جمهور غفير على الرغم من هزيم الرعد وهطول الامطار ، وصدرت نشرة صحية عن حالته جاء بها « أن حياة الاديب الكبير قد أصبحت فى خطر »

وفى الحادى والعشرين من مايو ، بعث الكردينال «جيبير» مطران باريس برسالة الى مدام لوكروى يخبرها فيهــا بأنه قد صلى كثيرا من أجل المريض المشهور ، وأنه اذا كان فيكتور هوجو يرغب فى أن يزوره القسيس فليس أحب اليه من أن يقوم بنفسه بهذا الواجب كى يقدم له العون فى مثل هــــذا الوقت العصيب !

ورد زوج أليس على الكردينال شاكرا له هذا الاهتمام ، وأخبره بأن حالة المريض لاتسمح بتلك الزيارة ·· اذ أنـــه أصبح فى غيبوبة تامة ··

وفى الثانى والعشرين من مايو ، أفاق فيكتور هوجو من غيبوبته ، فودع صغيره جورج وحفيدته جان ، ثم نظر الى من حــوله بعينين نائمتين ، وخاطبهم قائلا : « اننى أرى نورا أسود » ، يذكرنا ببيت من أجمل أبياته :

« هذه الشمس السوداء البشعة التى يشع منها الليل ! »·

وفى اليوم نفسه فارق فيكتور هوجو الحيــاة ، وحينمــا فتحت وصيته تبين أنها مكتوبة بالشـــعر ، وأنه قد أوصى

للفقراء بخمسين ألفا من الفرنكات ، وبأن يدفن فى مقـــابر الفقراء !

وحينما أذيع نبأ وفاته ، أوقف مجلس الشيوخ ومجلس النواب الجلسة حداداً على وفاة الشـــاعر العظيم ، وقـــرر المجلسان أن يدفن جثمانه فى مقبرة العظماء (١) بعد عرضه تحت قوس النصر ••

***

دامت الاحتفــالات الرسمية بوفاة فيــكتور هوجو أياما متتالية ، وبلغ عدد المشيعين الذين ساروا فىجنازته أكثر من مليونين من الاشخاص ، ولكن أحداً لم يخطر بباله وقتئذ أن يذهب لزيارة مقبرة سان مانديه ! ولو قدر لانسان أن يفعل لوقعت عيناه على قبر متواضع يقوم بين الحقول التى تحيط بها منازل الضواحى يضم رفات تلك التى اقترن اسمها باسم الكاتب العظيم فى عالم الادب

وكانت الميتة تود من صميم قلبها أن ينقش على شاهد قبرها هذه الابيات لحبيبها الشاعر :

« حينما لا أكون سوى رماد بارد •• »

« وحينما تغلق عيناى المتعبتان عن ضوء النهار »

« فاسأل نفسك : هل ذكراى ثابتة فى قلبك ؟ »

« لقد كان للعالم فكره •• »

« أما أنا فكان لى حبه •• »

ولكن أحدا من أقربائها لم يهتم بتحقيق هذه الامنية ،فظل

---

(١) Le Panthéon

قبرها زمنا طويلا بلا اسم ولاتاريخ .. أما الآن فيستطيعزوار « مقبرة سان مانديه » أن يلمحوا بين القبور قبرا مزدوجـــا يلمع رخامه الابيض وسط الزهور ، وقد نقشت على شاهده الابيات السابقة ، والفضل فى ذلك يرجع الى « جمعية أصدقاء جولييت دروويه » التى تتكفل الان بالعناية بهذا القبر الذى ترقد فيه مع ابنتها كلير

المصادر

— Victor Hugo: Lettres à la Fiancée (Edition Nelson).

— Victor Hugo: Actes et Paroles — Avant l'exil et Pendant l'exil.

— Victor Hugo. Les Chants du Crépuscule.

— Victor Hugo: Les Feuilles d'Automne.

— Victor Hugo: Correspondance.

— Victor Hugo: Le Dernier Jour d'un Condamné.

— Adèle Hugo: Victor Hugo raconté par un témoin de sa vie.

— Juliette Drouet: Mille et une lettres d'amour à Victor Hugo.

— André Maurois: Olympio ou la vie de Victor Hugo.

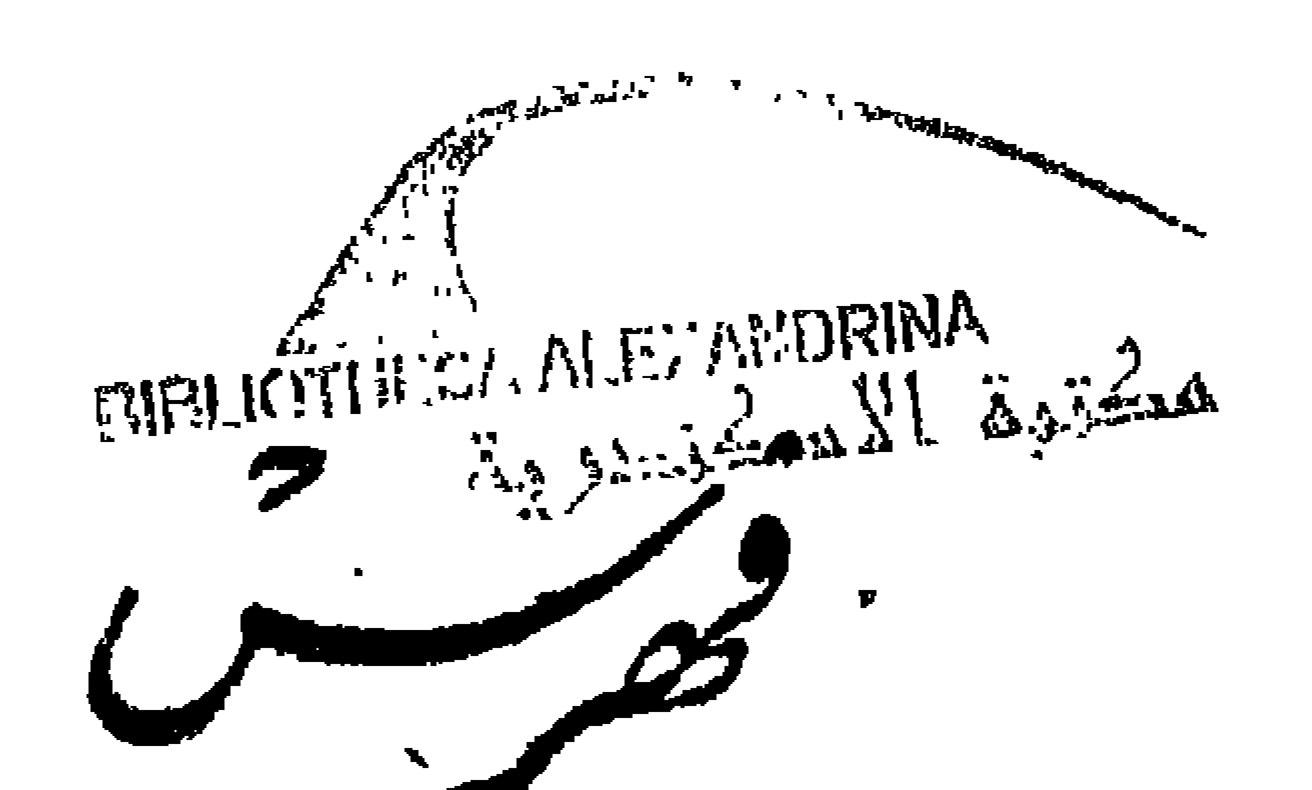
— Raymond Escholier: Un Amant de Génie.

— Sainte Beuve: Nouveaux Lundis.

— Sainte Beuve: Correspondance Générale.

— Cf. Louis Guimbaud: Victor Hugo et Juliette Drouet.

— Gustave Simon: La Vie d'une Femme.



صفحة

وكلاء مجلات دار الهلال

لبنـــان :	مكتب دار الهلال ـ شارع ابراهيم الحوراني
الاقليم الشمالي :	صندوق البريد ٢١٩٦ ـ بيروت
العـــراق :	السيد محمود حلمي ـ المكتبة العصرية ببغداد
اللاذقيـــة :	السيد نخلة سكاف
جـــدة :	السيد هاشم بن علي نحاس ـ ص. ب ٤٩٣
البحـــرين :	السيد مؤيد احمد المؤيد ـ ص. ب ٢١
البـــرازيل :	Dr. Michel H. Tomé, Paeto Do Colegio No. 3° Andar — Sala 9 SAO PAULO — BRASIL
غـــانا :	Mr. Hussein Abi Hassan, P.O. Box 2561, ACCRA, GHANA
سيراليـــون :	Messrs. Allie Mustapha & Sons, P.O. Box 410, Freetown Siera Leone
سنغافورة :	M. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit, Almaktab Attijari Asshargi, P.O. Box 2205, SINGAPORE
انجلـــترا :	ARABIC PUBLICATIONS DISTRIBUTION BUREAU, 7, Bishopsthorpe Road, London S. E. 26, ENGLAND
نيجـــريا :	Mr. Mohamed Said Mansour, Atlas Library Company, 126, Nnamdi Azikiwe Street, LAGOS NIGERIA

هذا الكتاب

ما زالت حياة فيكتور هوجو الغرامية مجهولة بالنسبة لجمهور غفير من عشاق فنه .. وقد عاش هوجو حياة حافلة بالحب والمغامرات السياسية والعاطفية

وليس بخاف على جمهورنا العربى أن هوجو هو ألمع كاتب رومانتيكى فى القرن التاسع عشر ، وقد ألف كتبا عدة أدبية وسياسية.. تصور حياة عصره ..

وهذا الكتاب الذى تقدمه سلسلة كتاب الهلال الى قراء العربية يصور حياة هذا الاديب الكبير تصويرا بديعا ، وينفذ الى دقائقها ، ويعرض لجميع المواقف والاحداث التى مرت بهذا الرجل الذى كان الحب يجرى فى عروقه حتى آخر نبضة من نبضات حياته

وقد بذل مؤلف الكتاب الاستاذ لطفى سلطان جهدا كبيرا فى استقصاء دقائق هذه الحياة الحافلة بعد أن اطلع على معظم ماكتبه عنه معاصروه ، وعلى كثير من الوثائق التاري والخطابات التى كتبها هوجو بيده

انه كتاب قيم فيه أدب وفيه تاريخ و تصوير للحياة الانسانية فى طورها الر